بسم الله الرحمن الرحيم

مذهب ابن آدم الأول

« مشكلة العنف في العمل الإسلامي »

سنن التغيير

مذهب ابن آدم الأول

« مشكلة العنف في العمل الإسلامي »

جودت سعيد

دار الفكر المعاصر

بيروت ـ لبنان

الكتاب 892

الطبعة الخامسة 1414 هـ = 1993م

ط1 1386 هـ = 1996م

لبنان – بيروت – ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، س.ت 51497

ص.ب (136064) هاتف (860739) تلكس : FIKR 44316 LE

الصف التصويري : دار الفكر بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والسلام على عباده الذين اصطفى .

اللهم اجعلنا من عبادك الذين يبلّغون رسالاتك ويخشونك ولا يخشون أحداً إلا إياك ، وكفى بالله حسيباً .

(رَبَّنا تَقَبَّل مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّميعُ العَلِيمُ)

كلمة الناشر

لقد بدأ المؤلّف يطرح أفكاره ضمن سلسلة اختار لها عنوان (سنن تغير النفس والمجتمع) ، منذ حوالي ثلث قرن ، في محاولة منه للإسهام في معالجة مشكلة تخلف المسلمين ، وانعدام فعاليتهم ، وغيابهم عن التأثير في أحداث العالم ، وعجزهم عن مواجهة الغزو الاستعماري الذي نجح في استضعافهم واستذلاهم ، ونهب خيراتهم ، واستغلال مواردهم .

وعلى الرغم من البطء في انتشار هذه الأفكار ، ودخولها في وعي المثقفين ، بسبب الحجب الكثيفة المسدلة على العقول ، وسيطرة الفكر التقليدي على الأذهان ، والخوف من التغيير الذي جعله الله تعالى الطريق الوحيد للنهوض من العثار في قوله : (إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) .

وعلى الرغم من سقوط العمل الإسلامي خلال هذه الحقبة في المحاذير التي نبَّه إليها المؤلف ، وغرق العديد من بلدان العالم الإسلامي في دوامة العنف التي حذر منها ، واعتبرها أم المشكلات ، ورأس الفتن والبلايا ..

وبعد ثلث قرن من التجارب والمعاناة لهموم المسلمين ، فإن المؤلف يبدو أكثر اقتناعاً بأفكاره التي سبق أن طرحها ، وأكثر إصراراً على نشرها وترسيخها في ذاكرة الأجيال ، عسى أن يخرج منهم شباب أكثر وعياً ، وأعمق فهماً ، وأرحب صدراً ، وأوسع انفتاحاً ، وأقدر على توجيه مجتمعاتهم المتخلفة نحو الرقي والحضور على مسرح الأحداث العالمية ، والإسهام الإيجابي في صنعها .

يبدو ذلك من مقدمته التي كتبها لهذه الطبعة الجديدة المنقحة من سلسلة (سنن تغيير النفس والمجتمع) ، والتي آثرنا أن نصدر بها كتابه الأول في هذه السلسلة : (مذهب ابن آدم الأول) ، وأن ننوه عنها في بقية الكتب ، دون أن نكررها في كل واحد منها ..

آملين أن نكون بذلك قد أسهمنا في نشر هذه الأفكار والترويج لها ، كي تصل إلى مستوىً أوسع من القراء في العالم العربي والإسلامي ، تاركين للقراء أن يسهموا ، بوعيهم وشعورهم بالمسؤولية عمن أداء الأمانة ، في تحويل هذه الأفكار إلى نطاق الفعالية ، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ؛ (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المسلِمِينَ) [فصلت 33/41] ، (وَمَنْ أَظلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ) [البقرة 140/2] .

المحتوى :

تقديم الطبعة الجديدة

(لسلسة سنن التغيير)

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

والآمرين بالقسط من الناس .

كيف أجد نفسي ، إذا التفت إليها ، بعد حوالي ثلث قرن من شبه الحضور والمعاناة لهموم المسلمين ، ومن محاولة الإسهام في بحث المشكلة الإسلامية ؛ مشكلة الرجل المريض أو الحضارة المريضة ؟!

وماذا يمن أن أقول ، حين يطلب مني التقدم لطبعة معادة لما كتبت خلال هذه الحقبة ؟!

سألني أخٌ ، كان قد شاركني معاناتي منذ البدء ، قائلاً : هل من جديد ؟ قلت : لا جديد ، غير أن الأولاد قد كبروا ، وظن أني أتحدث عن الأولاد ، فقلت : الأفكار هي التي كبرت ؛ امتدت جذورها عمقاً وتشعبت فروعها ، وبسقت أغصانها ، ولا جديد من الوصفات لأمراض المسلمين لديَّ ، ولا من التحليلات لمشكلاتهم .

كيف سأشرح وأقرب هذه الأفكار ؟!

يقول محمد إقبال : « ولحرف واحدٍ ألف مقال » .

وكذلك الفكرة الواحدة ؛ كي تستوي على قدميها تحتاج إلى ألف مقال .

منذ ذلك التاريخ طرحت فكرة مذهب ابن آدم الأول .

ما قصة (ابن آدم الأول) هذا ؟ وما علاقته بمشكلة العالم الإسلامي أو الإنساني ؟! وما معنى أن أطرح هذه الفكرة بالذات ؟ ولماذا ابن آدم الأول ؟ وماذا تعني كلمته التي قالها في مطلع التاريخ البشري ؟ ماذا تحتوي هذه الجينة الموقفية في تاريخ البشر ؟ وما معنى أن يطرح الإنسان فكرة في فهم العالم الإنساني ؟! وكيف سيختار الكلمة لهذه الفكرة الجديدة ؟ وما العلاقة بين الكلمة والتصور ؟ وما العلاقة بين التصور وما يتصور ؟ وما هذا الـ (ما يتصور) ؟ .. لا شك أن الـ (ما يتصور) كان الأول ميلاداً ، إلا أن هذا التصور لا يتولد من فراغ .. في أي مناخ تولد ؟! إنه مناخ التاريخ (الحدث) .. الأحداث التي يعيشها الإنسان .. كيف يعيش الإنسان التاريخ ؟!

أظن أنني اقتربت من الطريق المسدود ، أو أنني اقتربت من رأس النبع .

إن انقطاع الوحي في التاريخ البشري يمثل مرحلة انعطاف أو انتقال ، مثل مرحلة الولادة الجسدية .. إنها مرحلة انتقال أكثر من هائلة .. هذا الجنين الذي كان في الرحم ؛ غذاؤه ، نَفَسُهُ ، وجودُه ، كلُّه في داخل جسد الأم ، يرتبط بها بقناة وحيدة ، لو انقطعت قبل الأوان فهو الموت المحتم ، أما بعد الولادة فلا بد أن تقطع .

إن العالم كان يعيش في الرحم الفكري ، فلما نزلت (اقرأ) ، وُلد العالم الجديد ، وخرج الإنسان من جسد التاريخ والمجتمع الذي كان خياله يتغذى منه .

هل نحن ، حقيقةً ، قد وُلدنا ولادة فكرية ، أم أننا لا نزال في مرحلة الحمل ، نخاف أن ننتقل إلى مرحلة الميلاد ؟!

هل نرغب أن نولد ؟ من منا يتمكن أن يقبل ذلك ؟

وكيف يكون هذا الميلاد ؟

أظن أن التاريخ الذي عشتهُ ؛ حياةً وقراءةً ومعاناةً ، أشعرتني بضرورة أن أخرج من الرحم . وما هذا الرحم ؟

إنه هو :

رحم ما وجدنا عليه آباءنا

رحم معرفة الحق بالرجال

رحم عالم الأشخاص

إن المخاض الذي قذف بي خارج هذا العالم ، هو تلمسي بما يشبه قرون الاستشعار ، حركة التاريخ . كيف تلمست هذا .

لا أعرف كيف يمكن أن نساعد الإنسان على الحياة ، حتى يستطيع أن يتنفس برئته ، ويتغذى بواسطة معدته ، ويفكر بواسطة دماغه .

ولئن كان من السهل أن يدخل الإنسان عالم التنفس المباشر لأن الهواء متوافر من حوله يحيط به من كل صوب ، فإن الدخول المباشر إلى عالم الغذاء ليس بهذه السهولة ، ولا بد له من مرحلة انتقالية تمتد إلى سنة أو سنتين ، يتغذى فيها من ثدي أمه ، قبل أن يتعلم تناول الغذاء الذي يصلح له ، مباشرة .

ولكن ما شأن الدماغ ؟ كيف نهيئه لتقبل غذاء الأفكار ؟!

كيف نستطيع أن نخرجه من عالم (إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَاءَهُم ضَالِينَ * فَهُم عَلَى ءَاثَارِهِم يُهْرَعُونَ) [الصافات 70/37] ؟!

إن مشكلة الفطام هي أهم واجب إنساني ، فكما أن الطفل لا يفطم عن ثدي أمه حتى يشتد جسده ، فكذلك فكره لا يمكن أن يفطم حتى تصير لديه معلومات صحيحة عن تاريخ الإنسان .

عندما نزل القرآن ، لم يكن الإنسان يعرف عن تاريخه شيئاً يُذكر ، لا يعرف كيف انبثق إلى الوجود ، ولا كيف تقلب خلال التاريخ الطويل .

والطفل أيضاً يعاني ، ويعاني مَنْ حوله ، حتى يفهم كيف وجد في هذا العالم ؛ بأي المراحل مرَّ ؟ وما المسالك التي قطعها حتى جاء إلى الوجود حقيقة ؟ إنه يغرقنا بالأسئلة ، وربما نعرض عنه أو نكذب عليه ، دون أن تكون لدينا القدرة على مصارحته .

كذلك البشرية ؛ كان صعباً عليها استكشاف أصل وجودها في هذا الكون .. بل إن الإنسان في هذا المستوى ليهرب من التساؤل عن أصله ، وإذا تساءل فإننا لا نملك القدرة على مصارحته ومواجهته ..

إننا نعيش أحلاماً لذيذة قدمها لنا الآباء ، لا نريد أن نتشكك فيها ، ونشعر أنه ليس لنا الحق في أن نبحث بجدية عن كيفية بدء الخلق .

إن تشبيه الحياة الفكرية في ظلال تقليد الآباء ، وعدم القدرة على التفكير المستقل بالحياة الرحمية في مستوى الجسد ، أمر هام وجوهري لتقريب الفكرة ، فالذي يعيش هالةً على فكر الآباء ، هو مثلُ الجنين الذي يعيش في الرحم عالة

على أمه ؛ تمده باحتياجاته الغذائية والحيوية عن طريق حبل سُرِّيٍّ . فإذا طال تلكؤ الجنين أو رفضه للخروج من بطن أمه ، وقطع الحبل الذي كان يربطه بها ، فإنه سيفصل عنها قسراً بواسطة العملية القيصرية ، لأنه يصبح خطراً عليها .

كذلك الإنسان ، الذي مازال يعيش في الرحم الفكري للآباء عالةً عليهم ، يشعر كأنه سيموت إذا انفصل عنهم ، فإنه أحوج ما يكون إلى الولادة الفكرية ، وإذا لم تكن لديه القدرة على الاستقلال الفكري ، فسوف يعيش حياته الفكرية معاقاً .

أما الإنسان الذي تمكن من اجتياز مرحلة الولادة الفكرية بجدارة ، فهو الإنسان المعافى فكرياً .. إنه بهذه الولادة والاستقلال ، لم يفكر ولم يجد تاريخه ؛ بل إنه لن يكون وفياً لوجوده إن لم يتقبل التكيف مع مراحل التاريخ ؛ ماضيه وحاضره ومستقبله .

لقد عاشت الإنسانية مرحلة ما قبل الزراعة ، ثم دخلت عهد الزراعة ، فكان ذلك ولادة جديدة لها ، تطلبت منها تكيفاً كاملاً ؛ مع أساليب تقسيم العمل ، وتوزيع الإنتاج ، لمنع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، ولكي لا تكون الأموال دُولة بين الأغنياء . ثم تابعت الإنسانية سيرها إلى عصر الصناعة فعصر المعلومات ، إلا أننا نحن المسلمين ما زلنا نعيش خارج التاريخ ، لم نولد بعد ، فأنى لنا الدخول في عصر الصناعة ، بله عصر المعلومات .

إن هذه الولادات والتغيرات في حياة الإنسان ، تحدث كالزلزلة .. ونحن المسلمين لا يمكن أن نتقبل هذه الولادات والتغيرات بارتياح ما لم نفهم طبيعة

الحياة من الواقع ، وما لم نفهم طبيعة الكون الذي نعيش فيه ونحن جزء منه . وها هو الكتاب يؤكد لنا أن هذا الكون ليس قد خلق وانتهى ، وإنما هو لا يزال يخلق ، ويزداد في خلقه : (يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ) [فاطر 1/35] ، (وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعلَمُونَ) [النحل 8/16] ، (سَنُرِيهِمُ ءَايَاتِنَا فِي الأَفَاقِ وَفِي أَنفُسَهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَهُ الحَقُّ) [فصلت 53/41] . بل إن لنا في هذه الدنيا نشأةً آخرةً غير نشأة يوم القيامة ، لا يفهمها إلا من استجاب لأمر الله : (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرضِ فَانظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشأَةَ الأَخِرَةَ) العنكبوت [20/29] ، فإذا رأينا كيف أن الإنسان أتى عليه عهد ، ربما قبل عشرة آلاف سنة لم يكن شيئاً مذكوراً . لم يكن يعرف كيف يُنتج غذاءه ، ولا كيف يستر جسده ، ثم رأينا كيف تعلم الزراعة والقراءة وتسخير الطاقة خلال عشرة آلاف عام ، فإننا نستطيع أن نتصور ما سيكون عليه الإنسان بعد عشرة آلاف عام .

إن المسلم لا يفكر في ذلك بجدية ، وثقافته الإسلامية المكتوبة ، لم تكن تعرف أن الإنسان قد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكرواً ، ولم تكن له رؤية تاريخية بهذا المستوى ، ولم يكن ذلك ممكناً له .

إن معلوماتنا عن التاريخ البعيد للإنسان معلومات حديثة في حياة البشر تحدثت الأرض بأخبارها ، فأدركها كل من سار في الأرض باحثاً يمعن النظر ، ورآها الناس في آيات الآفاق والأنفس .

ولا بد للعالم الإسلامي أن يتقبل ولادة فكرية تؤهله للدخول في هذه الحياة الجدية ، التي لم يكن سابقاً لأحد بها من علم ، لأنها كانت مما أخبر عنه الله بقوله : (وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعلَمُونَ) [النحل 8/16] ، ولم ينته الخلق ، وسوف يستمر خلق الله لما لا نعلم ، وعلى المسلم أن يدرك هذا وأن يتفهمه ، دون أن يشعر يتناقض مع دينه ، بل عليه أن يمتلئ شعوراً بأن دينه هو الذي قرر هذه الحقيقة ، قبل أن يتمكن أحد من تصورها .

لقد كان الناس فيما مضى لا يعلمون عن خلقهم ونموهم شيئاً يذكر ، فكانوا معذورين في تصورهم الحياة ثابتة جامدة ، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا إعادة الحياة الراشدة إلى الأمة الراشدة التي تستطيع أن تصنع جهازها الراشد للحكم . فضيعوا الخلافة الراشدة ، واستسلموا استسلاماً عجيباً للأوضاع ، ولم يعرفوا لمعالجتها طريقاً غير الهرج وشريعة الغاب ، ورأوا في سرة الرسول ﷺ أمراً خارقاً ، لا يحدث إلا لرسول ، ولم يروا فيها سنة تتكرر نتائجها لكل من أخذ بها .

ولئن عجز آباؤنا عن أن يتصوروا طريقاً لإعادة الأمور إلى نصابها غير طريق الهرج ، فإن العصر الذي نعيش أرانا من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس ، طرقاً أخرى مكنت كثيراً من المجتمعات بناء أجهزة حكمها بأساليب أقرب إلى الرشد من الأساليب التي اتبعها المسلمون ولا يزالون يتبعونها حتى الآن .

إن مشكلاتنا لكثيرة ، وكثيرة جداً .. وظني أن أكبر مشكلاتنا هو تجميد حركة الحياة ، وعدم إمكان تصور أن يخلق الله شيئاً غير الذي نعلم .. لا بد من بحث هذا الموضوع بكثير من الجدية والتعمق .

ولقد تنبه محمد إقبال إلى هذه المشكلة ، ومحمد إقبال من الأفراد القلائل الذين عانوا الولادة الفكرية ، وعاشوا في رحابها الواسعة ، بعد أن غادروا الحياة الفكرية الضيقة في رحم مغلقة .. فبذلك استطاع أن يقدم لنا رؤية واضحة عن مبدأ الحركة وعن تاريخ الجمود في البناء الفكري للإسلام ، وكيف سلَّم المسلمون بضرورة الاجتهاد نظرياً ، وأنكروا تطبيقه عملياً ، وعن دور المذاهب ، ومدارس الفقه الإسلامي ، وأنظمة الحكم المتعاقبة ، والنكبات المدمرة التي تعرضت لها الأمة الإسلامية ، مثل غزو التتار وتدمير بغداد ، ونزعات التصوف .

ولقد تركزت جهود المصلحين لصيانة المجتمع من الانحلال على ضرورة الاحتفاظ بحياة اجتماعية مطردة ، على نمط واحد ، يشمل الناس جميعاً .. « فأنكروا كل تجديد في أحكام الفقه التي وضعها الرعيل الأول من الفقهاء ، وكان النظام الاجتماعي بيت القصيد في تفكيرهم ، وليس من شك في أنهم كانوا على شيء من الصواب ، لأن النظام يقاوم الانحلال إلى حدٍّ ما ، لكن ما فاتهم وفات علماءنا المحدثين كذلك ، هو أن مصير الشعوب لا يتوقف على النظام بقدر ما يتوقف على قيمة الفرد . والجماعة التي يسودها التنظيم الزائد يتلاشى فيها الفرد ، إذ هو يجني ثمار كل ما حوله من تفكير اجتماعي ، لكنه يفقد روحه هو ..

وقد أحسن كاتب من المحدثين تصوير ذلك حين قال : (الأفكار البالية لن تقوم لها قائمة أبداً بين قوم بليت على أيديهم) . وعلى هذا فالقوة الفعالة التي تقاوم انحلال الشعوب إنما هي تنشئة أفراد ذوي فردية قوية .. يجهرون بمقاييس جديدة ، نرى في ضوئها أن بيئاتنا ليست واجبة الحرمة في كل شئ ، بل هي تفتقر إلى التعديل »[1] .

وفي تصوري أن هؤلاء الأفراد ، ذوي الفردية القوية ، الذين يجهرون بمقاييس جديدة ، نبدأ نرى في ضوئها أن بيئاتنا ليست واجبة الحرمة في كل شئ .. هؤلاء الأفراد لا ينشؤون من فراغ ، وإنما ينشؤون إثر اطلاّع واسع وعميق على مجتمعات عدة ، يستنبطون منه – بالمقارنة – القانون العام الذي يحكم نمو المجتمعات ، ويكتشفون به (سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ) [الأحزاب 62/33] ، فيطبقونها على مجتمعاتهم .

إن الإنسان حين يقتصر في دراسته على مذهب معين ، يتولد عنده تصور محدود ، فإذا اطلع على مذهب آخر ، فإنه يكسب بذلك رؤية أرحب ، تخلق لديه إمكانات جديدة لتفسيرات جديدة ، فإذا وسع دراسته إلى دين آخر ، وفلسفات أخرى ، فإن قدرته على تصور القوانين التي تحكم نشأة المذاهب والمجتمعات تصبح أضعافاً كثيرة .

وإنه لا يمكننا أن نتصور أن بمقدور فرد محصور الرؤية في بيئته واحدة أن يأتي بإبداع جديد مفيد ، لأن الإبداع لا يتأتى إلا من الشهود والإحاطة بما حدث

---

[1] محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ص 171 – 174 ، دار آسيا ، 1985م .

للمجتمعات (وَتَكوُنُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ) [الحج 78/22] . ولن يستطيع غائب عن أحداث العالم أن يبدع حضارة ، فالحضارة من الحضور ، ولا يكون الغائب متحضراً ، كما ليس لغائب شهادة ، ولا يمكن أن تقبل شهادة إنسان وهو غائب .

واليوم ، من لا يحضر أحداث العالم يومياً ، يعدُّ متخلفاً ، هل يمكن أن يتأمل شبابنا ذلك ملياً .

أما الموضوع الآخر الذي تناوله محمد إقبال ، وأوضح لنا فيه كيف جمَّد المسلمون ما هو متحول مما يدخل في إطار قوله تعالى : (وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعلَمُونَ) [النحل 8/16] ، وكيف أنكروا - غيرة منهم على الدين - كل تجديد في أحكام الفقه التي وضعها الرعيل الأول من الفقهاء ، فبالرغم من كوني لست متخصصاً في هذا الموضوع ، فإني - بحسب معلوماتي الضئيلة - أشعر بأننا لسنا مقودين بمقود لا قدرة لنا على الفكاك منه ، ورؤية ما حولنا لاختيار ما هو أقرب للعدل .

فالإيمان والإسلام ، كما حدده الرسول ﷺ لجبريل - الذي طلع على المسلمين وهم جلوس عند رسول الله ﷺ في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، وطرح على النَّبي أسئلته بقصد تعليم المسلمين دينهم[1] - ليسا موضع نزاع في العالم الإسلامي ، فالإيمان مبني على الاقتناع (لاَ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ) [البقرة 256/2] ، والإسلام مبني على الاتباع .

[1] انظر الحديث بتمامه في رياض الصالحين ، الحديث رقم 60 ، طبعة دار الفكر بدمشق .

إنما موطن الاجتهاد والنزاع في التشريع الذي يطلق عليه (المعاملات ونظام العلاقات بين البشر ، وحقوق العباد) ، وهذا كله مبني على تحري العدل ، وحيثما تحقق العدل فثم شرع الله ، وكلما كان العدل أقرب إلى الكمال ، كان أقرب إلى الشرع (وَإِذَا حَكَمتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحكُمُوا بِالعَدْلِ) [النساء 58/4] .

العدل المطلوب أن يُحكم به في هذا النص القرآني ، بين الناس وليس بين المؤمنين فقد . وإذا تنازع الناس في تحديد العدل ، فلا مانع من الأخذ بأي الجمهور . وجمهورُ المسلمين على اعتبار الإجماع مصدراً من مصادر التشريع ، سواءً كان هذا التشريع متصلاً بإقامة جهاز للحكم ، أو نظام الاقتصاد ، أو قانون للعقوبات ، أو غير ذلك من شؤون المسلمين .

وكلما كان الأمر قريباً من الإجماع ، يعتبر العدل الذي رآه الذين اقتربوا أكثر من الإجماع أفضل ، حتى يحدثوا ما هو أفضل سواءً كان الموضوع متصلاً بإنشاء جهاز الحكم أو بنظام الاقتصاد أو بقانون العقوبات .

وهذا يقودنا بدوره إلى موضوع الشورى التي أمر الله رسوله بها (وَشَاوِرْهُم فِي الأَمرِ) [آل عمران 159/3] ، ووصف بها المؤمنين (وَأَمرُهُم شُورَى بَينَهُمْ) [الشورى 38/42] .

فلو أن المسلمين نظموا أمرهم على الشورى بينهم ، وقلبوا ما كان أقرب للإجماع من آرائهم ، وبدؤوا بما هو متفق عليه ، وأخَّروا ما كان مختلفاً فيه ، لحلُّوا الكثير من مشكلاتهم .

هل استطعت أن أشخص المرض ؟ وأن أضع يدي على مكمن الداء ؟ وأن أقرِّب فكرة ظلت تراودني منذ حوالي ثلث قرن ؟!

أم أنني مازلت أتوغل في درب مسدود ؟!

ما يهمني أن لا تظل (فكرتي) حبيسةً في رحم فكري مظلم ، وأن تخرج إلى النور ، تتنفس برئتيها ، وتبصر بعينيها ، وتسمع بأذنيها ، وتنمو بعقلها . وأن يجعلني الله من (الذِّينَ يُبَلِغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخشَونَهُ وَلاَ يَخشَوْنَ أَحَداً إَلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً) [الأحزاب 39/33] .

ألا هل بلَّغت ؟! اللهم اشهد .

قنيطرة . بئر عجم جودت سعيد

1993/6/3م

مقدمة الطبعة الرابعة

(وَإِذْ قَالَ رَبُكَ لِلمَلاَئِكَةِ إِنِي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجعَلُ فِيهَا مَن يُفسِدُ فِيهَا وَيَسفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحنُ نُسَبِحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعلَمُ مَا لاَ تَعلَمُونَ) [البقرة 30/2].

وبعد لقد مضى على الطبعة الأولى لهذا الكتاب ربع قرن كامل وأنا مشدود الأعصاب على مراقبة الأحداث مع أفكار هذا الكتاب ، فضلاً عن تبادل الآراء حول موضوعه بشكل جاد أو حاد . ومع ذلك فإن الملاحظات التي وضعتها بعد مقدمة الكتاب لا تزال صادقة على نحو يعدو للتفاؤل أحياناً ، وأحياناً أخرى يدعو للأسف من بطء النمو .

وبما أن عابة الأمور التي تشهد على صدق الأفكار وصحة المفاهيم ، فإن هذا الربع الأخير من هذا القرن قد أضاف من آيات الآفاق والأنفس على صدق ووجاهة ووضوح هذا الموضوع أكثر مما تراكم خلال التاريخ البشري من ناحية الإنسانية ، وأكثر مما تراكم من تجارب من خلال التاريخ الإسلامي من عهد معاوية واستيلائه على الحكم بالقوة وجعله وراثة بالقهر .

والجمهور من المسلمين كانوا دقيقين في الإعراب عن وجهة نظرهم بطريق الرمز ، والسكون عن التدخل في التفاصيل ، حين طبعوا على جبين التاريخ أن الخلفاء الراشدين أربعة فقط ، حيث وصلوا إلى الحكم برضا المسلمين ، وكلمة الوصول إلى الحكم برضا الناس أو بقهرهم ، إن لم تكن جديدة على الوعي البشري أو الإسلامي ، إلا أن ربط هذه المقولة بوصف الخلفاء الأربعة وحدهم بالراشدين ، والكفِّ عن إطلاق هذا اللقب عمن بعدهم ..

أقول إن هذا الربط شيء جديد على الواعية الإسلامية ، وأستطيع أن أقول إنه شيء لم أسمع به من قبل . وربما لشدة وضوحه ، ومن شدة الوضوح الخفاء . . وإن كان المسلمون يعتبرون الشيء الذي لم يُسْمَع به في أسلافهم بدعةٌ إلاَّ أن هذا الموقف الإسلامي ينبغي أن يتزحزح ويتزلزل ، لأن ردّ المقولات على أساس أنها لم يُسمَع بها من قبل ، فكرة ترد في القرآن على أساس إدانة أصحابها لا على أنها مزيَّة يمتازون بها ، وأنها فضيلة إنسانية . والمسلمون قد يقبلون أن يُقال لهم أن وصول الحاكم إلى الحكم ينبغي أن يكون برضا المسلمين لا بقهرهم ، ولكن ما يلزم هذا من أن عزله ينبغي أن يكون بواسطتهم أيضاً أقل إدراكاً وتفهُّماً ، وإن

كان هذا التصور ممكناً أن يدخل في واعية المسلمين وفهمهم وإدراكهم ، إلا أنهم يرون أن الطريق إليه كسدود ، ولا يمكن الوصول إليه بغير القوة العنف ، ولكن لا يشعر المسلم أنه بهذه النظرة دخل في المتاهة التي لا مخرج منها ، وسنَّ بذلك سنَّة تمنعه من العودة إلى الصواب . إن هذا الشعور بأنه لا يمكن الوصول إلى الحكم بغير القوة استبعادُ للفكرة الأساسية الإسلامية والإنسانية ، وهذا الاستبعاد والإخفاء ، والإزاحة لبعض الأمور وإبراز أخرى ، مشكلة ثقافية وتربوية لصياغة أسلوب التفكير . تقوم بها كل الثقافات البشرية وأحسنهم طريقة فقط أقلهم استبعاداً وإخفاءً للطرق الأخرى الممكنة . أقول يحتم المسلم بأنه لا طريق للوصول إلى الحكم إلاَّ بالقوة ، ويفعل هذا بكل سهولة ويسر ، وتسول له نفسه أن هذا العمل ليس بخطيئة كبيرة ، وليس منكراً ، وأنه يمكن التساهل فيه وتجاوزه من غير حرج ، بشرط أن توضع خطة ناجحة ومحكمة لهذا الاقتناص للحكم . وحتى لا يقال ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، ينبغي أن تقول مهما كان هذا القول خافتاً ومستبعداً ، وغير مسموع به ولا مُفَكَّراً فيه ، وحتى لم يُطرح الموضوع كسؤال ، لأن مجرد السؤال عن الشيء والتساؤل عنه يدخله في عالم المفكَّر فيه ، وهذا السؤال الذي لم أسمع به في الثقافة الإسلامية هو ما يلي : ما هو الفرق أو ما هي القاعدة التي نميز بها بين الجهاد والخروج في الإسلام ؟

هذا السؤال ينبغي أن يوضع في البؤرة ، أي ينبغي أن يكون

الشغل الشاغل للوصول إلى الإجابة عنه ، لأن المسلمين ينزعجون من هذا السؤال ، حيث يؤدي إلى كشف خبيئهم ، وأنهم صاروا خوارج ولم يعودوا

مجاهدين . وبما أن هذا الموضوع مسكوت عنه سكوتاً مطبقاً في الثقافة الإسلامية المتوارثة ، ولأنهم يرون أنه لم يعد في الإمكان ممارسة الجهاد إلا عن طريق جهاد الخوارج ، لابد من إثارته من جديد بكل الإلحاح وبكل الوعي واليقظة التامة .

ولسنا بحاجة إلى أن نعيد الثناء على الجهاد الممدوح والمرفوع إلى ذروة سنام الإسلام ، أقول لسنا في حاجة إلى ذكر وإعادة مقام الجهاد في القرآن وكتب السُّنَّة ، فهذا معروف ومشهود ومحفوظ ومعاد ومكرر بما فيه من الكفاية ، وكذلك من المعروف ـ ولو بشكل أقل ـ أن الخوارج يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، وأنهم أكثر صياماً وصلاة من سائر المسلمين ، وأن هذا معروف في كتب السُّنَّة ، وفي كل كتاب للسُّنَّة يوضع كتاب أو باب للفتن يوصف فيه الخوارج . ومع ذلك لم يبحث أحد من المسلمين القاعدة التي نميز بها بين جهاد الإسلام وجهاد الخوارج ، لماذا لم يطرح هذا الموضوع للبحث الجدي ؟ ولما أقول لم يطرح ولم يبحث ، لا أزعم أني اطَّلعت على كل ما قاله المسلمون في هذا الموضوع ، حيث من العسير أن يطَّلع فرد واحد على كل ما قاله المسلمون ، على فرض أن كل ما قاله المسلمون في هذا الموضوع ، صار مطبوعاً ومتداولاً وممكناً الاطِّلاع عليه ، فضلاً عما لا يزال في عالم المخبآت ، وفضلاً عما أبيد من أفكار المسلمين بأيدي المسلمين ، حيث كانوا يحرقون من الكتب ما لا يحبون أو لا يوافق هواهم ، وبأيدي غير المسلمين حيث كانت الكلمة العليا للسيف وليس للفكر والفهم . وإلى أن يأتي الباحثون ليجيبوا عن هذا السؤل باستفاضة ، وبتشقيق القول فيه ، لا مانع من أن نقول : إن الذي كان يصرف

عن هذا السؤال ، أن البحث فيه كان يمكن أن يوصل إلى الكشف عن شيء لا نحبه ولا نرغب فيه ، وهو أننا صرنا جميعاً خوارج ، والخوارج وإن كانوا كسائر الاتجاهات الفكرية مذاهب كثيرة ، إلاَّ أنهم ينقسمون إلى فريقين بارزين ؛ فريق القَعَدة من الخوارج الذين هم خوارج في الاعتقاد فقط ولا يحاولون أن يمارسوه عملياً ، وخوارج عمليون وهم الذين يمارسون الجهاد حسب فهمهم له . ونحن صرنا خوارج ، بعضنا خوارج قعدة ، والبعض الآخر خوارج عمليون يمارسون جهاد الخوارج .

لاشك أن بحثاً يؤدي إلى أن يكشف لنا أننا خوارج قلباً وقالباً ، ومغموسون إلى الأعماق في هذا المذهب ، لا يعجبنا ولا نحب أن يذكرنا بذلك أحد ، ولا نرغب أن يتناول أحد بحثاً يؤدي إلى أن يكشف وضعنا .

وأنا أشرت إشارتين خفيفتين إلى هذه المشكلة في هذا الكتاب ، المرة الأولى في مقدمة الطبعة الثانية التي طبعت في مصر ، حين قلت لا يزعج مستيقظاً ولا يوقظ نائماً بأسلوب : « إن أحداثاً جساماً تمرُّ في العالم في صمت ، من غير دراسة متعمقة ولا تحليل دقيق لأسبابها وما ينتج عنها ، إن عدم تناول هذه الأحداث بالدراسة الجادة لدليل على أن أمراض المسلمين لا تزال تتمتع بحصانة تمنعهم من مواجهتها . وهذا الموقف غير الناضج يكون سبباً في وقوعنا في أخطاء ، لم نكن نريدها البتة ، كأن نتبنى فكر الخوارج دون أن نقصد إلى ذلك ، ومن غير أن يخطر لنا ذلك على بال » .

والإشارة الثانية في خاتمة الكتاب التي أضيفت إلى الطبعة الثالثة في دمشق ، هناك فقرة أخرى صغيرة بعنوان (الجهاد والخروج) قلت فيها : « ولكن المشكلة التي ضاعت مفاتيحها وإدراك سننها وشروطها الدقيقة ، في خضم الفتن المتتالية ، هي تحليل مفهوم الجهاد الذي قام به الرسول ﷺ ، واختلاط هذا الجهاد بجهاد الخوارج .. الخ » .

ولكن هنا في مقدمة هذه الطبعة في الإمارات العربية المتحدة ، أريد أن أسلط ضوءاً آخر ، أرى أنه مهم ، مهما كان خافتاً أيضاً ، على هذا الموضوع المنسي وغير المسموع به واللامُفَكَّر فيه ، بل ربما من المستحيل التفكير فيه في الظروف الحالية ، ولنفتح الباب لنجعله ممكن التفكير فيه ، نقول الآن ونفتح الخطاب فيه من جديد لأن آيات الآفاق والأنفس هي التي أوجبت العودة إلى هذا الموضوع المستبعد البحث فيه .

والأفكار غير المسموع بها يمكن أن تنقسم إلى قسمين :

قسم منها قريب التناول والفهم ، وربما نعجب كيف لم يخطر لنا على بال مع وضوحه ووجاهته ، وهذا ما يقال عن صاحبه أنه عبقري ومبدع .

وقسم آخر من الأفكار غير المسموع بها ، بعيد التناول والفهم ومرعب يزلزل كياننا ، ونشعر أنه ينسف أسس تفكيرنا ، وينسف الدنيا التي نعيش فيها ؛ هذه الدنيا المرقعة ، هذه الدنيا التي نعيش في هامشها ككائنات مدجنة ، لا يحق لها ولا يُسمح لها أن تُفكر في أنفسها مثل سائر البشر ، وعندما أقول ينسف أسس تفكيرنا ودنيانا ، أقصد أيضاً أنه ينبغي أن ينسف أسس تفكيرنا وما ينتج عنها

من الأوضاع السيئة التي نعيش فيها ، لأن أوضاعنا السيئة نتيجة لما بأنفسنا من أفكار وتصورات ، فإذا كانت هذه الأوضاع السيئة ينبغي أن تُنْسَف ويحل محلها أوضاع أقل سوءاً ، كذلك ينبغي أن يزول ما بأنفسنا من أفكار وتصورات ، هي سبب وجود هذه الأوضاع السيئة وسبب بقائها واستمرارها . وهذه العلاقة بين ما بالأنفس من تصورات وما بالواقع من أحوال سيئة مزرية .. أقول هذه العلاقة خفية ومنسية وغير مُفَكَّر فيها بما تستحق من اهتمام ، وغير مسموع بها ، والبحث فيها لا يكون على مستوى جاد ومُلِحّ ، وإنما يذكرها العوام أحياناً تحت عنوان : لم نعد مسلمين إلاَّ بالهوية ، أو لَّما يتناولها بشكل غير ملفت للنظر ، بعض المصلحين حين يطلق تعبير (المسلمين جغرافياً) . وهذه الأفكار المستحيل السماع بها وتناولها على شكل جاد ، من يطرحها يقال له أو يمكن أن يقال له : كافر وزنديق بادي الرأي ، وإن كانت ستتحول بعد ذلك إلى أفكار ممكن السماع بها . والعلاقة بين ما بالأنفس وما بالواقع مثل العلاقة بين ما لم يسمع به وبين ما هو مستحيل السماع به ، تنمو ببطء شديد في العالم الإسلامي ، وكأن بين هذين العالمين سد غير قابل لإقامة معابر وطرق مواصلات وتبادل حوار ، لإحكام إغلاق السد ، وتسميك الجدار ، ورفع بنيانه عالياً .
هل يمكن أن يطرح سؤال : ما هو الفرق بين جهاد الخوارج والجهاد الذي جاء به الإسلام ؟ مثالاً تطبيقاً على العلاقة بين ما بالأنفس وما بالواقع ، وبين ما يمكن السماع به وبين ما هو مستحيل السماع به ، وهل يمكننا أن نُقَرَّب الموضوع ، ونجعل (المستحيل السماع به) من نوع (غير المسموع به) ؟ بحيث إذا سمعناه

لا يزلزل كياننا ولا يهدم بنيان ثقافتنا . هذا ما نحاول افتتاح باب البحث فيه وإن كنا نترك مسألة توضيحه وبيانه إلى أن يتحول إلى سلوك عملي في واقع المسلمين نترك هذا التوضيح والتحويل إلى الذين يأتون من بعدنا .

ما هو الفرق بين الجهاد والخوارج ؟

هذا السؤال ليس منكراً ولا بدعة ، وإن لم يبحثه المسلمون بمواجهة واضحة لا من قبل أهل السنة ولا من قبل الشيعة . وإن كنا نحاول طرح السؤال ثم محاولة الإجابة عليه ، ولو بشكل مقتضب ، إلا أن البحث في جذور هذه المشكلة يتصل بموضوع آخر ، وهو بحث : كيف بدأ خلق هذا الموضوع على مقتضى قوله تعالى : (سِرُوا فِي الأَرضِ فَنظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ) [العنكبوت 20/29] ، وكيف يزيد في الخلق ما يشاء ، فالمعاني أيضاً من المخلوقات التي يزيد الله فيها متا يشاء بواسطة إبراز آيات الله في الآفاق والأنفس حتى يتبين لهم أنه الحق ، والذين ينظرون في آيات الله في الآفاق والأنفس ، يتبين لهم من معاني آيات الله ، في الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ، ما لم يتبين للذين من قبلهم ، وهذه الحالة ربما هي التي جعلت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يجيب حين سئل : « هل ترك لكم رسول الله ﷺ يا آل البيت شيئاً خصَّكم به من دون الناس » فقال : « اللهم لا ، إلاَّ أن يكون فهماً يؤتيه الله عبداً من عباده في كتابه ... الخ » ،أو كما قال رضي الله عنه . وإذا فهم عبد من عباده معنى في كتابه وفق قواعد اللغة ، يكون ذلك أسلوباً في إبانة الله سبحانه وتعالى لعباده ، مما أودعه في كتابه مما سيظهر ويُعْلَم نبؤه بعد حين . ودلالة اللغة على المعنى قابلة للزيادة فقد زاد الله

أيضاً في إدراك معنى اللغة وأبعاد دلالتها ما يشير إليه قوله تعالى : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرضِ إِنَّهُ لَحَقٌ مِثلَ مَا أَنَّكُم تَنطِقُونَ) [الذاريات 23/51] .

قد تبين ما في اللغة من معنى عميق يزيد في الخلق ما يشاء في رؤية آيات الله في الآفاق وفي الأنفس . إن هذه البحوث صارت ضرورية لفهم كيف يتم (وَنَسُوا حَظاً مِّما ذُكِّرُوا بِهِ) [المائدة 13/5] .

وفهم سنَّة ارتباط اللغة بالمعنى وكيفية خلق المعاني وموتها مع باء الألفاظ ، وكيف يحدث التحريف :

(يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) [المائدة 41/5] . هذه الدراسات صارت ضرورية لإعادة النظر في المشكلة الإنسانية وفي المشكلة الإسلامية التي هي جزء منها . إن رؤية آيات الله في الآفاق وفي الأنفس صارت ضرورية لتصحيح المعاني والدلالات على مقتضى قوله تعالى :

(وَلَتعلَمُنَّ نَبأَهُ بَعْدَ حِينِ) [ص 88/38] ، و (وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعلَمُونَ) [النحل 8/16] ، و (أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) [البقرة 30/2] ، و (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلمِ إِلاَّ قَلِيلاً) [الإسراء 85/17] ، و (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً) [طه 114/20] . ودعاء الرسول : « اهدني لما اختلفوا فيه من الحق » . فالتشبيه الموجود في قوله تعالى :

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرضِ إِنَّهُ لَحَقٌ مِثلَ مَا أَنَّكُم تَنطِقُونَ) [الذاريات 23/51] ، يحمل معنىً عميقاً ، بدأت الدراسات اللغوية واللسانيات والسيميائيات وفلسفة الدلالة والرمز ، تكشف ما يحمله هذا التشبيه (مِثلَ مَا

أَنَّكُم تَنطِقُونَ) من معنى عميق ، يزيد في الخلق ما شاء ، فكلمتا الأرض والسماء مع بقائهما على حالهما في اللفظ فإن معناهما ، وما كان يخطر في بال الإنسان حين ذكرهما ، قد تغير ، ولا يزال يتغير إلى يومنا هذا ، فما يخطر في بالنا اليوم ليس ما كان يخطر في بال الناس الذين كانوا يعيشون أيام نزول القرآن ، هذا حين ينظر إلى الكلمة المفردة ، وأما ما يتغير من معنى الكلمة المفردة حين تضم إلى كلمة أخرى ، أو ما تصير تحمل من معنى في سياق الكلام فحدِّث ولا حرج ، فمعنى كلمة الأرض حين توضع مقابل السماء أو معها يختلف معناها فتشمل البحار مثلاً ، ولكن في قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصبِحُ الأَرضُ مُخضَرَّةً) [الحج 63/22] ، ليس كذلك . بعد هذه المقدمة الطويلة والمختصرة والضرورية والملحة معاً ينبغي أن نعرض السؤال الآتي :

ما الفرق بين الجهاد والخروج ؟

نقول : الخروج هو استخدام القوة والعنف للوصول إلى الحكم .

والجهاد هو استخدام القوة بعد الوصول إلى الحكم برضا الناس ، لمنع الإكراه في الدين إن لم يكن منعه من ذلك بغير القتال . وقصدي كله تقريب هذا الموضوع إلى الواعية الإسلامية ، وليس المهم هنا العبارات الدقيقة والدلالات المتشعبة . إن واقع السيرة النبوية يدل بعمومه دون البحث عن لفظ معين أو دلالة آية من القرآن أو حديث من السُّنَّة . إن واقع السيرة النبوية واقع ضخم كبير ، يدل بوضوح بيِّن بليغ ، على التزام الرسول ﷺ الجهاد بمعنى الاقتصار على الدعوة إلى سبيل ربِّه ، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن

، حتى وصل إلى الحكم برضا الناس وقناعتهم ، واستقبله أهل المدينة بـ (طلع البدر علينا) ، وهناك بدأ الجهاد ، قتال الذين يفتنون الناس عن دينهم ، قتال الذين يُكْرِهُون الناس على الدين ، شُرِع القتال حتى لا يكون إكراه في الدين (َ قَاتِلُهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتنَةٌ) [البقرة 193/2] ، شُرِعَ القتال بعد أن وصل الرسول ﷺ إلى الحكم بدون قوة إلا قوة الإقناع وقوة الفكر .

إن فكرة (لاإكراه في الدين) لا تزال مشكلة عالمية إنسانية إلى اليوم ، لم تقبل بها روسياً ومن كان معها إلا في الأيام الأخيرة حيث اضطرت روسيا أن تقبل هذه الفكرة فكرة (لاإكراه في الدين) ، اضطرت أن تقبل هذه الفكرة من دين فُطِرَ الناس عليها . قبلت فكرة (لاإكراه في الدين) مضطرة تحت ضغط نمو الفطرة البشرية ، وكما سيقبل سائر البشر الذين لا يزالون يرفضون فكرة (لاإكراه في الدين) سيقبلونها طوعاً أو كرهاً تحت تنامي فكرة (لاإكراه في الدين) في المجتمعات البشرية ، لا يقبلونها تحت ضغط القوة المسلحة ، ولكن يقبلونها تحت ضغط تنامي فكرة (لاإكراه في الدين) في المجتمعات البشرية . فكرة (لاإكراه في الدين) صارت مطلباً بشرياً عالمياً تُصَدَّرُ بها جميع دساتير العالم ، من يلتزم بها ومن لا يلتزم بها . أكرر مرة أخرى إن رسول الله ﷺ لم يصل إلى الحكم بالقوة المسلحة وإنما بقوة الفكرة . انتزع السيادة والسلطة في أقسى بيئة ، من غير استخدام القوة . ولكن بعد ذلك استخدمت القوة لحماية حرية الاختيار (وَقَاتِلُهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتنَةٌ) [لبقرة 193/2] ، والفتنة هي الإكراه في الدين . يقول الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المؤمِنِينَ وَ المؤمِنَاتِ) [البروج 10/85] ،

في قصة أصحاب الأخدود . إن الفتنة هي تعذيب الإنسان حتى يترك دينه ، أو قتله إذا لم يترك دينه .

شُرِعَ الجهاد حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

الجهاد هو منع الذي يُكره الناس على دين معين ، فإذا لم يمتنع عن هذا إلا بالقوة فنستخدم القوة لا لإدخال الناس في دين ما بالقوة ، ولكن القتال والجهاد شُرِعَ حتى لا يُكْرِهِ إنسانٌ إنساناً على الدخول في دينٍ ما بالقوة وبالقهر (أَنُلزِمُكُمُوهَا وَ أَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) [هود 28/11] ، والمعاني لا تستقر إلا بالتوضيح المستمر ولا تحتفظ بمضائها إلا بإعلانها وعدم كتمانها وإلا بقول الحق وتبليغه دون خشية الناس : (الذَّينَ يُبَلِغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَونَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إَلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً) [الأحزاب 39/33] .

وعلى هذا نقول : لتحقيق الجهاد بالقتال شرطان :

شرط في المجاهِدِ وشرط في المجاهَدِ ضدَّه .

شرط المجاهِدِ ، أن يكون قد وصل إلى الحكم برضا الناس واقتناعهم .

وشرط المجاهَدِ ضدَّه أن يُكرِه الناس على دين معين أو يفتنهم عن دينهم ، كما كانت قريش وسائر البشر في أنحاء العالم في ذلك الوقت . وبهذا يكون الإسلام قد جاء بشيء جديد في الحياة البشرية ؛ حرية الاعتقاد كما لاحظ ذلك توينبي وأن هذه الفكرة لم تأخذ بها بريطانيا إلا متأخرة ، يقول هذا رداً على المعترضين على مقولته : إن الحضارات التي تمارس العنف تموت وتنقرض ، ونفى

عن الحضارة الإسلامية أن تكون مبنية على العنف حيث سُمِح للناس بحرية الاعتقاد وقد طوَّل في شرح ذلك في دراسة التاريخ .

فإذا توفر الشرطان جاز الجهاد أو وجب ، وإذا أُخِلَّ بشرط منهما يكون قد خرج عن الجهاد . وهذا الفهم ليس صعباً وإن كان جديداً بشكله المحدد أو أسلوب عرضه . وينبغي البحث فيه ولا مانع من الخلاف في الرأي مهما كان ملحاً في تطلب إظهار مزايا أحد الرأيين وضعف الرأي الآخر ، فإن هذا الخلاف يمكن أن يكون رحمة بشرط أن لا يصل إلى القتال وإكراه الآخر على قبول رأي معين دون أن تحصل لديه قناعة ، فإذا وصل الأمر إلى ها صار الخلاف فتنة وعذاباً وهرجاً وجاهلية يضرب الناس فيها رقاب بعضهم بعضاً ، وبهذا الفهم للخلاف تستطيع أن تفهم الخلاف الممقوت والخلاف المنكر ، فهو الخلاف الذي يؤدي إلى القتال من أجل الرأي فقط . وأن الخلاف الصحيح والمأمور بحمايته هو الخلاف الذي يتم البحث وإظهار النقص في الرأي الذي عند الآخر بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، دون أن يصل إلى السباب والتجريح والقتال ، ويمكن أن يُفهم على هذا الأساس قوله تعالى : (وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم) [هود 119/11] ، لا يزالون مختلفين ، وللخلاف خلقهم ، ولكن هذا الخلاف رحمة ؛ لأن الخلاف يظهر الحق ، وبه يحصل البلاغ المبين ، لأن المخالف هو الذي يرى تقائصك التي لا تبصرها أنت ، وقد تكون قد زُيِّن لك سوء عملك ، والمخالف هو الذي يستطيع أن يُبصِّرك بهذه النقائص ، فمن هنا كان القول المأثور رحم الله امرءاً

أهدى إلينا عيوبنا . وقول آخر ما جادلت أحداً إلا وأحببت أن يظهر الحق على يديه ، لأن الهدف الوصول إلى الحق ولا يهم من أي وعاء خرج ، وأنت أولى بقبول الحق الذي اهتدى إليه الآخر . ولكن يصير الخلاف نقمة حين يصير هدف كل منهما تصفية الآخر جسدياً . والذي يلجأ إلى قتل المخالف وتصفيته جسدياً يدلل بوضوح على فشله وعجزه فكرياً ، وجدير أن ينهزم مهما صار له من صولة وجولة إلى حين .

فهذا قانون الله الغالب الذي سيحكم على الخطأ بالفناء (كَذَلِكَ يَضرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ فِي الأَرضِ) [الرعد 17/13] .

ولابن تيمية كلام موجز وحسن في هذا الموضوع حينما قال :

« إذا كان الكتاب فوق السيف فهو الإسلام وإذا صار السيف فوق الكتاب فهو المنكر » . أو نحو ما قال ، فهذا القول دقيق وناتج عن تعمق في البحث . فإذا كان الحكم للسيف فهو شريعة الغاب ، وشريعة الخوارج ، شريعة الغاب في المصطلح الحديث الحضاري المدني ، وشريعة الخوارج في المصطلح الإسلامي .

وإذا كان الحكم للكتاب فهذا هو الإسلام ويمكن أن يقال بالمصطلح المدني شريعة القانون وسيادة القانون .

وبهذا المعنى يمكن أن يقال إن الخوارج إنما سُمُّوا بهذا الاسم لخروجهم على القانون وخروجهم من الإسلام ، كما جاء في الحديث « يمرقون من الإسلام » لا لخروجهم إلى الجهاد كما يريدون أن يَفْهموه ويُفهموه للناس . والرسول ﷺ

علَّمنا كيفية الخروج على القانون الظالم ، والعرف الظالم ؛ ليس بقتله واغتياله ، وإنما بعصيانه وعدم طاعته ، المتضمن قي قوله ﷺ : « لا طاعة في معصية » .

والخروج على القانون الظالم وعدم طاعته مشكلة إنسانية كبيرة لا تزال قائمة في كل المجتمعات ، والناس الذين يطالبون بحرية الرأي لا يفهمون الإسلام ، ولا يفهمون ممارسة الرسول ﷺ . إن الرسول ﷺ لو طالب قريشاً بحرية الكلام والدعوة لما سمحوا له . ولكنه ﷺ مارس واجب لدعوة ، وليس حرية الدعوة ، لأن الطريق الصحيح هو أداء الواجب لا المطالبة بالحق ، لأن الواجب به تنزل الحقوق من السماء ، إن لم تنبت من الأرض ، كما يقول مالك بن نبي .

ولابن تيمية كلمة أخرى بليغة أيضاً حين قال « القتال في الإسلام ليس لأجل الكفر بل لأجل الظلم » لأن الكفر يبقى وله حق أن يبقى بعد الانتصار عليه . إذن فقتاله لم يكن لإزالة كفره وإنما لإزالة الظلم ، والظلم أكبر ما يكون في مصادرة الرأي وممارسة الإكراه في الدين .

(وَمَا لَكُم لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ المستَضعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الوِلدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخرِجنَا مِن هَذِهِ القَريَةِ الظَّالِمِ أَهلُهَا وَ اجعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَ اجعَل لَّنا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً) [النساء 75/4] .

والظلم ظلمات وإزالة الظلم والتظالم من الأرض مهمة بشرية إنسانية ، وهذه المشكلة التظالم ، هي الاعتراض الأول على كفاءة الإنسان في استخلافه في الأرض ، وهذا هو الاعتراض الذي قامت به الملائكة يوم استُخْلِفَ الإنسان في الأرض فقالوا :

(أَتَجعَلُ فِيهَا مَن يُفسِدُ فِيهَا وَيَسفِكُ الدِّمَاءَ) فقال الله لهم : (إِنِي أَعلَمُ مَا لاَ تَعلَمُونَ) [البقرة 29/2] . وإن كنا لا نزال نعيش في توقعات لملائكة ، إلا أن علم الله في الإنسان سيتحقق وسيتعلم البشر كيف يتجاوزون التظالم شيئاً فشيئاً وطوراً بعد طور . وإذا كان البشر يتعلمون بالمعاناة ويهتدون بالتاريخ ويصححون أوضاعهم بالنظر إلى عاقبة الأمور ، فإن أمر الله لنكون شهداء على الناس هو الذي سيؤهل الإنسان لتجاوز الفساد وسفك الدماء . والله تعالى حين حمى الاختلاف بقوله : (لاَ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ) [البقرة 256/2] ، وأمر بالسير في الأرض ورؤية الأمم والشهادة على الناس . وإنما أراد ، سبحانه ، إرساء أسس التقدم البشري ، ومصدر التربية الصحيحة ، ولكن نحن المسلمين أبعد الناس عن تفهم هذين الأمرين وتأهيل أنفسنا لممارستها . أقول إن هذين الأمرين مصدر التقدم البشري لأنه بحماية الاختلاف والتواصل بين الناس يتحرر الحق : (كَذَلِكَ يَضرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ فِي الأَرضِ) [الرعد 17/13] .

هذا هو قانون الله الغالب :بالاختلاف يتعمق الصواب وتتهيأ الفرصة لاحتمال ظهور الحقيقة ، وبالتواصل يتم اختيار الطريق الناجح ويعم الصواب في الناس ، كان هذا يحدث في البشر تلقائياً ، ولكن الوعي البشري أخذ يطالهما ويسعى لتنهيجهما . فبدأ البشر يعون أهمية الاختلاف . بشرطه الذي سبق أن شرحناه . وضرورة حمايته ، كما بدأ الوعي يطال أهمية الاتصال البشري ، وتبادل الخبرات والمعلومات والعلماء ، على أسس منهجية واعية ، ومما يتصل بهذا

الموضوع بروز أهمية السياحة في العالم ، وإنشاء وزارة في كل بلد للسياحة ، وإن كنا نحن لا نرى في ذلك إلا الجانب الاقتصادي ، إلا أنه يحمل في أعماقه هدفاً إنسانياً كبيراً ، وخدمة عظمى لظهور الحقيقة وزوال الأباطيل من العالم .

وأخيراً لا بد لنا أن نتساءل مرة أخرى ؛ ما الذي جعل المسلمين لا يفكرون في رؤية الفرق بين الجهاد الممدوح والمرفوع إلى الدرجات العلى ، وبين جهاد الخوارج المذموم إلى درجة المروق من الإسلام ؟ إن الأمر ليس من الغموض والالتباس حتى لا يمكن فهمه ، كما ليس من الصعب أن نرى الفرق بين الانتحار والاستشهاد ، وقد تلتبس علينا القرابين البشرية التي كانت تقدم في العهود القديمة ، لأن الأقدمين كانوا يزينون لأنفسهم أعمالهم أيضاً ، واليوم يمكن أن نعتبر الحروب التي لا جدوى منها قرابين بشرية أيضاً ، وممارسة لطقوس فظيعة في سبيل الأهواء والشهوات .

وطالما اشتبه على الناس نظام مسيرة الشمس والقمر ، وكان عندهم الاستعداد لأن يموتوا من أجله ، ويموتوا الآخرين في سبيله ، وكم من الأوهام لا تزال تسيطر على الناس ، وعليهم أن يكشفوها ويتجاوزوها ، فإذا أمكن للناس أن يخطئوا هذا الخطأ الفاحش ، في أوضح شيء يضرب به المثل في الوضوح ، فحري بالإنسان أن يتعلم من هذا التواضع ، وأن يستعيد قدرته على التأمل ، وإمكانية كشف الخطأ قبل فوات الأوان ، لأن خير الخطَّائين الذين لديهم القدرة على التوبة ، لا الذين يغلقون القوة الواعية فيهم عن أداء مهمتها في تأمل عواقب الأمور . والذي جعل المسلمين لا يفكرون في الفرق بين الجهاد والجريمة ،

هو أنهم أصيبوا بداء الأمم من قبلهم ، وحين يصف الله الأمم السابقة بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون ، ويقول عنهم صم بكم عمي فهم لا يفقهون ، فليس على هذا الخطأ خاص بالسابقين ، بل إن هذه حالة إنسانية تُصاب بها الأمم ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ : « لتتبعن سنة من قبلكم حذو القذة بالقذة شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه » ، وهذا ليس على أساس الحتمية المطلقة ، وإنما حتمية السُّنة ، في أن يُفْعَلَ في الثاني ما فُعِلَ بالأول ، حين تتوفر الشروط نفسها ، ومفهوم الاعتبار في القرآن إنما هو لتفادي هذه الحتمية . والقرآن مليء بمثل هذه السُّنن الاجتماعية التي يصاب بها البشر : (وَقَالَتِ اليَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحنُ أَبنَاؤُا اللهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ ، قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبكم ؟ بَل أَنتُم بَشَرٌ) [المائدة 18/5] ، (وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيءٍ) [البقرة 113/2] ، (وَقَالُوا لَن يَدخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَو نَصَارَى) [البقرة 111/2] .

هذه الحالة ليست خاصة باليهود والنصارى ، بل هي سنة بشرية ، والدراسات الإنسانية بدت تتبين هذه الناحية ، ولكن المسلمين يعتبرون أنه محصنون ضدَّ هذه الأمراض ، فهم لا يمكن أن يكونوا مثل أولئك الضالين ، لأنهم على الحق وليسوا مثل أولئك الضالين ، لكنهم لا يتساءلون : إذا كان الأمر كذلك فَلِمَ يعذبهم الله بذنوبهم ؟ لماذا ضرب عليهم الذلةَ والمسكنة دون سائر البشر في هذا العالم اليوم ؟ وما لم نتساءل عن أشياء كثيرة في ثقافتنا الإسلامية ، فإننا لن نقدر على أن نفتح أبصارنا التي أمرنا لنرى ماذا يحدث في

العالم . إن ثقافتنا قد أغلقت أبصارنا التي أمرنا الله أن نفتحها ونحدِّق بها ، وأن نزيل عن آذاننا الوقر لكي ننصت بها ، وعن قلوبنا الاغلاف لكي نفقه بها ، فكثيراً ما يقول القرآن عن الناس أنهم يصابون بالفساد وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ولكن هذه المواضيع صارت من المستحيل التفكير فيها . ولم نعد نرى شأن إبراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض ، ولم نعد نتساءل التساؤل الإبراهيمي ؛ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟! هل ينفعونكم أو يضرون ؟! ليس عندنا تساؤل ، وإن حصل تساؤل فليس عندنا جوابٌ إلا جواب قوم إبراهيم : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . إنهم كانوا يرون آباءهم سلفاً صالحاً ، ولم يخطر في بالهم القول الكريم : (أَوَلَو كَانَ آبَاؤُهُم لاَ يَعقِلُونَ شَيئًا وَلاَ يَهتَدُونَ) [البقرة 170/2] .

وهنا أودُّ القول بأن تجليات جديدة بدأت تظهر في آيات الآفاق والأنفس ، في أسباب المشكلات الإنسانية التي تؤدي إلى الفساد في الأرض وسفك الدماء . كما حدث فيما سبق من الزمان حين ظهرت للناس آيات الله في أسباب الأمراض الجسدية ، حين كشفوا الجراثيم واللقاحات والمضادات الحيوية . وباستخدام هذا التشبيه والمقارنة ، نستطيع أن نقرب إلى الإفهام الإمكانات المعرفية التي تخص الفكرة والسلوك الإنساني ، وما يترتب على جهلنا لها من آلام ومعاناة في العلاقات الاجتماعية ، كما كنا نعاني في المجاعات والآلام الجسدية ، حين لم نكن نعرف سنن إنتاج الغذاء وسنن أسباب الأمراض . والآن ، حين

نتعلم سنن أسباب النزاعات والعلاقات المأساوية ، سيتعافى الناس من الآلام والدموع والدماء ، كما تعافينا من آلام الأوبئة التي كانت تحصد الآلاف المؤلفة .

وينبغي أن نعلم أن الذين يصابون الآن بالمجاعات والأوبئة يُنْظَر إليهم على أنهم جهلة ، في حاجة إلى تعليمهم ، لا أن هذه الآلام ضربة لازب لا محيص عنها ، كذلك الآن الحروب والنزاعات التي تؤدي إلى أن يذوق الناس الآلام والعذابات ، ليست ضربة لازبة ، وإنما منشؤها الجهل والقذارة الفكرية . إنه لجدير بالتأمل من أصحاب الفكر ، ومن كانت له أذنان للسمع فليسمع .

وأريد أن أعقد مقارنة بسيطة بين مشكلات الجسد ومشكلات الفكر والسلوك . فإن الوضع الجسدي كما يمكن أن يراقب بإجراءات مختلفة كي يبقى في وضع صحي ، سليماً معافىً ، كذلك الوضع الثقافي ونظام الأفكار ، يمكن أن يُراقب بمختلف الإجراءات ، كي تبقى في وضع سليم معافى ، كما ويمكن أن يترك لشأنه دون مراقبة ، فيحدث للثقافة ، التي هي نظام الأفكار والتصورات الذهنية ، خلل يعرضها للأمراض ، ويعرض المجتمع إلى أن ينقلب على عقبيه مكبّاً على وجهه .

فلابد هنا من التأكيد والتشديد وتعميق التأمل في أسلوب القرآن ، في معالجة مشكلات الفهم والسمع والبصر ، فحين يتكلم القرآن عن أمراض القلب والبصر ، لا يعني أمراض القلب الجسدية التي تسبب مشكلة كبيرة في نسبة الوفيات ، وكذلك لا يقصد القرآن حين يتحدث عن العيون التي لا تبصر أمراض العين الجسدية ، وإنما يعني في المستويين : مستوى القلب ومستوى البصر

، الأمراض التي تصيب الرؤية الاعتقادية والثقافية ونظام الأفكار وقانون الفهم . إن مجرد الانتباه إلى الأهمية البالغة التي يوليها القرآن لهذا الجانب من الإنسان ، يجعلنا نوجه طاقاتنا في الانتباه والتذكر والاعتبار والتحديق ، لكشف سنن وسير وعمل نظام الأفكار والثقافة والعقائد والتصورات ، التي هي كائنات حية كالجسد الواحد ، إذا اشتكى جزءٌ منه اختلالاً تداعى له سائر الجسد بالآلام واختلال الوظائف .

وأعظم الدراسات الإنسانية الجديدة الآن التي تشغل أذكى الفلاسفة المتعمقين إنما تعنى بهذه المشكلة ، فكأن البشر بدؤوا يحسون بأن سلامة الجسد لا تعافي الأمة ، إن لم تصحبها سلامة المنهاج الفكري الذي يتكون الإنسان ضمنه .

لا يكفي أن نهتم بتربية الفرد فلا بد من الاهتمام بصنع المناخ الفكري ، والبيئة الثقافية التي يتكون خلالها الأفراد ، الذين ينتمون إلى تلك البيئة ؛ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه . أي يطبعانه ويصنعانه على نمط التصور المعين ؛ فهذا المناخ الفكري يؤدي في ثقافةٍ ما دور جهاز المناعة لدى الكائن الحي .

الكائن الحي إذا أضيف إلى جسده عضو جديد غريب ، فإنه يرفضه حتى ولو كانت حياة هذا الجسد تتوقف على قبوله ، فكأنه يفضل الموت عن أن يقبل هذا العضو الغريب . فلهذا من ينقل إليه قلب جديد لا يعيش أكثر من نحو خمس سنوات إلى الآن ، لعد التغلب على عامل الرفض بعد . والجهاز الثقافي

الذي تنشأ الأمراض ضمنه يقوم بهذا الدور الرافض ، فليس في الإمكان زرع أية فكرة في ثقافة ما إلا ضمن شروط دقيقة .

ويمكن أن نشبه أيضاً الأفكار في ثقافة ما بنظام الجسد . فمثلاً الكليتان تقومان بوظيفة عجيبة ؛ فهما تصفيان الدم بحيث لا يسمح بالعبور من خلاله إلى الفرز الخارجي إلا للمواد الضارة بالجسم التي لو بقيت ولم يتمكن الجسم من فرزها وطرحها إلى الخارج لهلك الكائن الحي ، وكذلك الأمر في عمل الرئتين ، وعمل القلب ، وكذلك جهاز المناعة ، فحين يكف عن مقاومة الجراثيم الضارة التي تدخل إلى الجسم فإنه يؤدي به إلى الوفاة . وكذلك جهاز الثقافة يقوم بهذا الدور ، فإذا اختلت هذه الوظيفة المزدوجة عجزت الأمة عن حلِّ مشكلاتها .

والاختلال الذي يصيب الثقافة يصيب عضواً معيناً ذا وظيفة خاصة ، ويمكن أن نجد هذا العضو في الثقافة بوظيفة العلماء المجتهدين ، الذين يتمتَّعون بأداء وظيفة الاجتهاد في التخلص من الضَّار وقبول النافع ، فإذا لم يوجد علماء أو لم يعد العلماء يقدرون على الاجتهاد المزدوج الوظيفة في القبول والرفض ، فإن الأمة التي تفتقد مثل هذا الجهاز تصاب بالتمزق والهوان نتيجة احتفاظها بالأفكار الضارة ، وعدم قدرتها على تقبل الأفكار الضرورية لسلامة الحياة . والحديث يقول : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » . ومضغة الأمة ، التي بها صلاح الأمة وفسادها هم علماؤها . ولكن من الذي يستطيع أن يكشف هذا الفساد . هناك مثل في الإنجيل يقول : إذا كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون ؟

وإذا كان الجسد مريضاً لا يؤدي وظائفه الحيوية ، وإذا كانت الأمة مريضة تعجز أن تقف على قدميها مثل سائر الأمم ، فإن على ناشئتها أن تكوِّن نفسها جهاز مناعة جديد تعيد الوظائف الحيوية للأمة .

إن الهدف من هذا البحث كله هو إبراز كيف حدث هذا الاختلال في الفهم في العالم الإسلامي ، واختلاط الدنس بالمقدس ، وما نتج عنه من مآسٍ ، وما يزال ينتج عنه ، وما سوف يظل ينتج عن هذا الاختلاط بين جهاد الخوارج والجهاد الذي جاء به الإسلام ، والذي لم يتساءل عنه أحد .. وهدفي توجيه الأبصار والبصائر للأجيال المتهيئة لتحمل الأمانة فهذا ما يجعلنا نلح ثم نلح في التفكير وإعادة النظر لعل الله أن يهدينا لأقرب من هذا رشداً .

ولكن ألفت الانتباه وأوجه الأنظار للتفكير في هذا الموضوع الذي يعرض عن بحثه المسلمون أشعر أنه من الضروري تسليط بعض الضوء مهما كان خافتاً على جوانب من هذا الموضوع فأقول : إن الشيء الذي يجعلنا نقع في خطيئة الخوارج ، أو من الأشياء التي توقعنا في هذه الخطيئة ، هو قولنا وتصورنا : أن الذين قتلوا علياً هم الخوارج ، لأن علياً رضي الله عنه كان خليفة راشداً لا يجوز قتله ، ولكن الذين نقتلهم نحن كفار خارجون عن الإسلام ، لهذا فإن عملنا نحن الآن لا شبه عمل الخوارج . ولكن الذي ينساه هؤلاء ويستبعدونه ولا يفكرون فيه ويجعلون التفكير فيه مستحيلاً ، هو أن الذين قتلوا علياً رضي الله عنه كانوا يرونه كافراً أيضاً ، وأن التخلص منه هو لصالح المسلمين . إذن إن تصورك أن الذي تقتله هو كافر ، وقتله في صالح المسلمين ، لا يكفي لأن تبيح لنفسك أن تقتله ، هذا

ما لا يقدر المسلمون على تصوره ، وهنا نقطة المتاهة ، فإذا كان حُكمُنا عليه بالكفر هو الذي يبيح لنا قتله حسب تصورنا ، فإننا ننسى ولا يخطر في بالنا أن الآخر يرانا أيضاً كفاراً ويبيح دمنا ، ويرى في التخلص منا صلاحاً للمسلمين . وبذلك حين نصدر على الآخر حكم الإعدام ننسى أننا أصدرنا على أنفسنا حكم الإعدام أيضاً . قف وتأمل هذا جيداً ، فإن كنت لم تسمع بهذا من قبل ، فإن عدم سماعك به من قبل آبائنا الأولين ، ليس معناه أن تحكم عليه سلفاً بالخطأ ، وأنه ليس جديراً بالتفكير فيه ملياً ، ولا يكفي القول لو كان هذا صحيحاً لفهمه آباؤنا الأولون . إن هذا الاستبعاد لهذا التصور هو الذي جعلني أقول سابقاً في خاتمة هذا الكتاب :

« إن هذه السُّنة التي نشأ المجتمع الإسلامي الأول عليها – أعني أسلوب الرسول ﷺ في منع العنف قبل أن يصل إلى الحكم بغير عنف – إن هذه السُّنة هي التي تقطع تسلسل الخطأ ، بحيث لا يسوِّغ إزالة الخطأ بالخطأ . إن الذين لا يهضمون هذه الأفكار ولا يراعونها ويتجاوزونها في نظراتهم المستعجلة سيفاجؤون بما لم يحتسبوه .. سيفاجؤون بأن الحكم الذي كانوا يظنون أنه شفاء من كل داء ، إنما هو مرآة تعكس سيئات المجتمع على أتم بشاعته وعنفوانه .. وسيتبين لهم أن هذا الأسلوب الذي استخدموه مع مخالفيهم في الرأي ، سيرجع إليهم ، وسيوجد في الأمة من لا يرضى عن سلوكهم ، ولو كانوا في عدل علي ، ورحمة عثمان ، رضي الله عنهما . إذن للخروج من هذه المتاهة لا بد لنا أن نرجع

لنفهم السبب الحقيقي في نهي القرآن عن العنف حين قال : (كُفُّوا أَيدِيَكُم وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ) [النساء 77/4] .

انظر إلى التفاسير تر أن المفسرين لا يستحضرون هذا المعنى الذي نبحثه ، ولا يستحضرون الشرط الذي جعلناه أحد الشرطين لحصول الجهاد ؛ وهو شرط من يجاهِد ويحقِّق الجهاد ، أن يكون قد وصل إلى الحكم برضا المجتمع . إن الذين يفتنون لأنفسهم بالقتل بناء على فتوى أخرى بالكفر مخطئون فهذا التسلسل الخاطئ لا يكفي لأن تسوِّغ لنفسك الحكم بالكفر ثم تنتقل منه إلى الحكم بالقتل .

وأنا لا أقول عجباً إذا قلت إن هذا الموضوع سينال من الاهتمام في المستقبل ، أكثر بكثير مما أوليته في هذا الكتاب ، ولاسيما حين يصير الحكم للمسلمين ، كما نرى تباشيره في الحركة التي يسمونها الصحوة الإسلامية ، والتغيرات العالمية ، فلا بد للذين يستقبلون الأيام القادمة من أن يتأملوا هذه النقطة بالذات ، حتى لا يرجع المسلمون يكفِّر بعضهم بعضاً ، ويضرب بعضهم رقاب بعض ، وأن يصبر الذين يرون الأخطاء ولو إلى درجة الكفر ، وأن لا يصدروا حكم الموت على معارضيهم ، وإنما عليهم أن ينكروا الخطأ ويقنعوا الناس بما يرونه صواباً ، وحين يفعلون هذا يكونون قد خرجوا من الدائرة المغلقة التي عاش فيها المسلمون حين لم يتحاكموا إلى البلاغ المبين ، وتحاكموا إلى السيف في الظلام الدامس .

إن عدم فهم هذه الأمور بعمقها هو الذي يجعل العالم الإسلامي ، آخر من يضطر أن يقبل بفكرة الوصول إلى الحكم برضى أهل الحلِّ والعقد بمصطلح

المسلمين ، وبالديمقراطية في المصطلح الحديث . وينبغي أن نعلم أن الديمقراطية لن تحل المشكلة الإنسانية ، مادامت المجتمعات الإنسانية جاهلة ، وما دامت المجتمعات تظن أنه يمكن أن تكون هناك ديمقراطية ، مع وجود حق الفيتو لأحدٍ في العالم .

إذن علينا أن نعلم أن العلم هو الذي يرفع الدرجات ، وأن الجهل هو مصدر كل الشرور . والقرآن حين يأمر بالسير في الأرض والنظر إلى ما حدث للأمم الخالية وما يحدث للأمم المعاصرة إنما يأمر بأهم مصدر للمعرفة وأساليب التربية في الحياة البشرية . والذين لا يفعلون هذا سيظلون يُلْدَغون من الأحجار ، والذين لا يسيرون في الأرض ، ولا ينظرون ماذا حدث للعالم ، سوف لن تبكي عليهم السماء والأرض ، وإن أمر الله لم يتوقف ، وسيظل هناك بشر آخرون ، يكونون شهداء على الناس ، ولا يدعون شيئاً يفوتهم مما يحدث في العالم ، فكما شبابنا الأذكياء يتنافسون في تعلم مشكلات الجسد ، فيساهمون في تخفيف الآلام ، فإنهم إذا توجهوا لتعلم السُّنن النفسية والقوانين الاجتماعية والكشوفات في العلوم الإنسانية ، وفهموا المغزى العميق لقوله تعالى : (بَل أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّن خَلَقَ) [المائدة 18/5] ؛ فهناك سنتعافى في علاقاتنا البشرية ومهماتنا الإنسانية . ونضع مهمة هذا التوجه أمام شبابنا المتحرق ابتغاء مرضاة الله ، ونرجو أن لا يطول الانتظار .

ولا يسعني أن أختم هذه المقدمة ، دون أن أشير إلى أن علم الله في خليفته في الأرض ، بدأ يبرز أمام وعي الإنسان ، وبدأت الحروب تفقد آلهتها ، ولم يعد

لعبادها ذلك الحماس ، وبدأ يظهر للبشر أن الحرب لم تعد الوسيلة التي لا بد منها للحياة البشرية ، بل إنها لا تليق بالحياة البشرية ، ولم تظهر هذه الرؤية بوضوح إلا في هذا القرن ، حين وقفت آلة الحرب المدمرة لتقول بوضوح للإنسان : إن لم تكف عن ممارسة هذا الطقس الفظيع فسأدمرك . وهذا صار واضحاً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ..

وفي عام 1988 لو كان هناك متبصرون بعمق ،لأعلنوها عيداً للبشرية ، كما المسلمون يحتفلون بعيد الأضحى إحياءً لذكرى استبدال القربان البشري على يد أبي الأنبياء عليه السلام ، فإن عام 1988 عام بدء تدمير الأسلحة النووية ، وهذا فيه تباشير انتهاء الحروب من العالم ، وما يحدث من حروب هنا وهناك ما هي إلا الحشرجة التي يمارسها من يلفظ أنفاسه الأخيرة .

لاشك أن مذهب ابن آدم الأول صار نهاره قريباً ، وبدأ فجره

يبزغ ، وخيره سيعم في العالم وسيصل الناس إلى المدى الذي يقول فيه الإنسان للآخر : لئن بدأت الحرب ، ولئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله ربَّ العالمين .

وكما أبطل على يد إبراهيم القربان البشري ، فإن القرآن كان قد قلص جناحي الحرب ، حين جعلها لحماية حرية الرأي فقط ، وحين أعلن أنه (لاإكراه في الدين) ، وبشر بعد السَّلام .

إن العالم حامل ببذرة السلام ، وهو قريب المولد ، وأنا أؤكد هذا مع كل الضجيج الذي يملأ الآذان بطبول الحرب ، والذي لم يعد له بريق بل قد أصابه القتام .

والله يدعو إلى دار السلام ويهدي به الله من اتبع رضوانه سُبل السّلام .

(وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

1990/11/22

جودت سعيد محمد

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ..

أشرت في مقدمة الطبعة الثانية إلى بعض الكتابات التي ظهرت . بعد الطبعة الأولى . في بحث مشكلة العنف في العمل الإسلامي . ويبدو أن الأزمة لم تخفَّ ، بل تفاقمت كما يظهر من خلال رصد الأحداث .

والكتابات العلمية حول الموضوع لا تزال تمشي بخَفَرٍ واستيحاء ، ويُنظر إليها بريبة تجعل من يحاول الكتابة فيها متردداً قبل أن يقدم عليها .

ولا يسعني إلا أن أسجل هنا إشارة إلى المحاولة التي قامت بها مجلة العربي الكويتية في استكتاب شخصيات إسلامية مرموقة ، فكتبت فيها مقالات تحت عنوان « التَّطرُّف الدِّيني » . وفي حينها سجلت خاطرة في الموضوع تحت عنوان « التَّطرُّف وذهاب العلم » أضمنها إلى الطبعة الثالثة كخاتمة لها .

دمشق في رمضان المبارك 1403 هـ - 1983 م

جودت سعيد

مقدمة الطبعة الثانية

مضى على الطبعة الأولى عقد كامل ، ولم يحدث تغيير يُذكر في العالم الإسلامي ، فيما يتصل بهذا الموضوع ، بينما زاد شعوري بضرورة الزيادة في البحث والتحقيق فيه ، والأزمات كما توقعت لم تقلَّ لا كماً ولا كيفاً ، وإن حدث شيء من الحيرة أثَّرت في الكَّم والكيف لم يكن ناتجاً عن العلم والفهم بل العجز والتردُّد .

ومع ذلك فلا يسعني إلا أن أشير ، بكثير من الاهتمام ، إلى المقالات التي كتبها (الأستاذ عبد الحليم أبو شقة) في مجلة المسلم المعاصر ، وما حدث حولها من حوار متحفظ ، وميزة تلك الكتابات أنها صادرة من مراجعة الذات أو النقد الذاتي ، الذي يمتاز عن النقد الذي يأتي ممن يُعتبر ، بشكل من الأشكال ، أنه نقد من الخارج ولكن احتمال ألا يستمر البحث فلا بد من توقع ظهور البحوث النابعة من الذات التي توفر القيمة النفسية لتصحيح الاتجاه .

كما ينبغي أن أشير إلى كتاب (أزمة الفكر السياسي ، تأليف الدكتور عبد الحميد متولي ، وتقديم شيخ الأزهر الذي طُبع لأول مرة عام 1970 وأُعيد طبعه عام 1974) حيث عقد المبحث الخامس في الكتاب لمشكلة استعمال العنف من جانب الجماعات الدينية والسياسية .

وكذلك ما كتبه الدكتور (محمد المطالبي) في مقال بعنوان (التاريخ ومشاكل اليوم والغد في مجلة عالم الفكر التي تصدر في الكويت في يونيو عام 1974) .

وربما كانت هناك دراسات لم أطَّلع عليها تتفاوت في عمقها ومقدار ما يمكن أن تُحدث من تنبه .

إلا أن قلة الدراسات والمراجعات في هذا الموضوع دليل على أزمة في عقل المسلم لعدم اتِّخاذه موقفاً من مشكلاته .

إن أحداثاً جساماً تمر في صمت من غير دراسة ولا تحليل دقيق لأسبابها وتمحيصها لدليل على أن أمراض المسلمين لا تزال تتمتع بحصانة تمنعهم من مواجهتها . وهذا الموقف غير الناضج يكون سبباً في وقوعنا في أخطاء لم نكن نريدها البتة ، كأن نتبنى فكر الخوارج دون أن نقصد إلى ذلك ، ومن غير أن يخطر لنا ذلك على بال .

والغموض الذي يحيط بتلك الموضوعات أدى إلى الاختلاط في أذهان قادة الرأي والفكر في ديار الإسلام مما جعل الأزمة مأساوية ، وسوف يظهر واضحاً للأجيال القادمة ما كنا نعانيه من عجز عن وضع الأمور في مواضعها ، وكيف كان يختلط علينا موضوع الدفاع عن العرض والمال الوارد في قول الرسول ﷺ : « من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد » وبين قوله ﷺ فيما يخص موضوع الفتن أن نكسر سيوفنا ، وأن نكون كخير ابني آدم ، وأن نلقي ثوبنا على وجوهنا إن خشينا أن يبهرنا شعاع السيف .

ومادامت هذه الأمور مختلطة علينا ، وما دمنا نقف في صمت مطبق من دون أن نسلط شعاع الفكر الذي يزيل الغموض والاختلاط ، فلا نرقب شفاءً

عاجلاً قبل زوال هذه الالتباسات . إن البيان والبيانات هو ما تحتاج إليه الأزمة لحلِّها .

إن ما هو صعب الآن سيسهل تجاوزه حين تتناول العقول المتفتحة هذه المشاكل بالبحث والتحليل فنجد الخلاص من عقدنا كأنما نشطنا من عقال .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

دمشق في شعبان 1396 هـ - 1976 م

جودت سعيد

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله .. والحمد لله .. وسلام على عباده الذين اصطفى .

إن مشكلة العالم الإسلامي قضية تخصُّ خمس البشرية ، وهي لذلك قضية جديرة بأن يُفَكِّرَ فيها ويَهتمَّ بها كل من كان يستطيع أن يسهم في حل هذا التخلف الذي أصاب العالم الإسلامي . وقد اهتم بهذه القضية فعلاً عدد من رواد الفكر الإسلامي .

فمن هؤلاء بل في مقدمتهم[1] جمال الدين الأفغاني الذي كرَّس حياته وجهاز تفكيره في معالجة مشكلة المسلمين ، ولم يدخر شيئاً من إمكاناته لم يصرفه في هذا السبيل ، وكانت حياته وفكره كله وقفاً على هذه القضية ، ففي سبيلها تقلب في طول الأرض وعرضها مشرداً منفياً ، وقد أودع نظراته في حلِّ مشكلة العالم الإسلامي في كتابه (خاطرات) .

---

[1] اكتفينا بمن ورد ذكرهم دون قصد حصرهم .

ومن هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي الذي اهتم بمشكلة العالم الإسلامي ، وأفنى حياته في التفكير والكتابة فيها ، فكتابه (أم القرى) كان خاصاً بتشخيص داء المسلمين ومشكلتهم ، حيث أنطق وفود العالم الإسلامي في كتابه هذا بما يرى من دائهم ، وكان يرى المشكلة في هذا الفتور الذي عمَّ العالم الإسلامي .. هذا الفتور الذي حل بالجسد الواحد فلم يدع عضواً منه لم يصبه الفتور .

ومن هؤلاء جلال نوري الذي خصَّص حياته لمناقشة مشكلة المسلمين وكيفية حلها ، وكتب لذلك كتابه (اتِّحاد المسلمين) ناظراً إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون ، وإلى ما هم فيه من تخلُّف ، فكان كتابه خطاً عريضاً في عرض مشكلة المسلمين ، وتشخيص كثير من أدوائهم ، وكان بحثاً جديداً جديراً أن يفيد منه العالم الإسلامي .

ومن هؤلاء محمد لإقبال فقد أعمق النظر في المشكلة الإنسانية وأهمية المسلمين ودورهم الذي ينبغي أن يقوموا به وخصص حياته ومواهبه الفكرية والبيانية لبحث مشكلة المسلمين .

ولقد أودع دواوينه آراءه وأفكاره ، ثم كتب كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام) محاولاً بذلك معالجة المشكلة من جذورها النفسية .

ويأتي بعد هؤلاء الكاتب الجزائري مالك بن نبي ، الذي خصص إمكاناته في عرض مشكلة العالم الإسلامي تحت عنوان (مشكلات الحضارة) في الكتب التي نشرها ، وقد استفاد من كل ما سبق فكانت بحوثه ذات أهمية بالغة في كشف عناصر الحضارة وسنَّة تركيبها ، وكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد

أبعاد المشكلة ويحدد العناصر الأساسية في الإصلاح ويبعد في البحث عن العوارض ، وكان كذلك أول من أوضح منهجاً محدداً في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس والاجتماع وسنَّة التاريخ .

إلا أن استفادة العالم الإسلامي من هذه الوصفات كلها كانت ضئيلة ، فهؤلاء الكتَّاب أو الأطباء الذين عالجوا مشكلة العالم الإسلامي حاولوا أن يضعوا الأسس النظرية والعملية للمشكلة .

وهناك قوم حاولوا أن يقوموا بالتركيب العملي والصياغة الجديدة للعالم الإسلامي فأحسنوا وأفادوا ودفعوا وأيقظوا ، كما أن بعض نظراتهم أو منطلقاتهم لم تكن في أماكنها الخاصة في تصنيف أركان العمل فكان لذلك كله آثاره الإيجابية والسلبية في آن واحد .

إن كل من أوتي حظاً من النظر في هذه المشكلة المهمة التي تخصُّ البشرية أولاً ومباشرة ، والعالم كله ثانياً وتبعاً ، وكل من يرى نصحاً يمكن أن يكون مفيداً في هذا الموضوع ، يجب أن لا يدخر جهداً ، ولا يحقر إسداء المعروف مهما كان صغيراً ، فمن لم يهتم بقضايا المسلمين فليس منهم .

ونحن نريد أن نلفت النظر إلى جانب من هذه المشكلة ، ناشئ عن مفهوم يخص الإنسان أو يخص مشكلة تغييره . فسنة الله في التغيير تبدأ بتغيير ما بنفس الإنسان ، ونظرة الإنسان إلى كيفية التغيير ووسائله ولكن الخطأ قد يقع في الوسائل اكثر مما في الأهداف .

فالكل متفقون على ضرورة تغيير نفس الإنسان ، ولكن قوماً يرون طرقاً معجلة كاستخدام القوة في تغيير النفس وحمل الناس على ذلك ، وآخرون يرون طريقة التغيير بمخاطبة النفس وإقناعها .. هذه المشكلة مع سهولة عرضها تتصل بموضوع التربية الإنسانية ، وتستند إلى القواعد الأولية في تربية الفرد والمجتمع ، والخطأ في التربية يحدث كثيراً من العلل النفسية لكل من الذي يقوم بالتربية والذين هم موضوعها .

فالعالم الإسلامي أصيب بسطحية النظر في هذا الموضوع إذ امتزج أسلوب التربية بروح الإلزام أكثر من أن يكون بروح الإقناع ، فجهلت قيمة الفكرة وجمدت ، وأبرزت قيمة القوة وأخذت موضع الصدارة في محاولة التغيير .

أو يمكن أن يُقال : كان النظر إلى أهمية التأثير السياسي في التغيير ، وأن الإمكان السياسي في مثل هذه الظروف صار متعلقاً بالقوة ، فالمشكلات آخذ بعضها برقاب بعض .

وهذه المشكلات عامة في العالم الإسلامي ، لا تخص بلداً بعينه ، وإنما هي قاسم مشترك في جوِّ الثقافي ، وإن كان يمكن ملاحظة فروق ضئيلة ليس لها تأثير كبير في واقع الحياة .

وكان من نتائج تلك النظرات في الإصلاح هذا الشعور الذي نلاحظه في الفرد المسلم من أنه يعتقد ـ طبقاً لما يأمره دينه ـ أن عليه أن يعمل للإسلام ويقوم بواجب الوفاء لعقيدته ، بينما يحس أنه ممنوع من ذلك .

فهو في صراع وتمزق بين دافع العقيدة ومانع الواقع ، مدفوع ممنوع ، يشعر أنه مكلف بما لا يستطيع . فكانت إرادته منفصلة عن ميدان عمله ، أو استطاعته منفصلة عن إرادته .

فلابد من إعادة التوازن لئلا يتمزق جهد المسلم في هذا الدفع والمنع ، ولكي يكشف المسلم كيف يستخدم طاقاته في تنفيذ إرادته حتى لا يبقى في تمزق نفسي ، ولا يكون كرجل فيه شركاء متشاكون .

وهذا التمزق أو الصراع الداخلي ناشئ من نظرته إلى الأشياء ومن تفسيره لها ، وليس ناشئاً من أن المشكلة لا حلَّ لها .

وهذه النظرة : هي طن أن المبدأ لا يمكن نشره إلا بالقوة ، سواء كان ذلك مطلقاً أم بالأولوية . أي سواء أكان الظن بأن نشر المبدأ لا يمكن إلا بالقوة . أو أن نشره بالقوة أضمن للنجاح .

ورغم أن هذه النظرة غير مؤيدة بواقع الكفاح النَّبوي الذي لم يعتمد إلا على قوة الفكر ، فإن عوامل مختلفة قد تضافرت على تثبيتها في نفس المسلم ، حتى امتزجت بمثله العليا وتاريخه وعقيدته ، وكل فخره وعظمة أسلافه .

كل هذه تعاضدت في تمسك المسلم اليوم ، وعدم قدرته على إعلان أنه ليس في حاجة إلى استخدام غير فكرته في بناء المجتمع . ولقد ساعد على تأكيد هذا التراث التاريخي واقع الحياة في القرن التاسع عشر وما يليه ، حين غزت هذه الفكرة البشرية فزاد تعلُّق المسلم ـ الذي لم يكن لديه مراقبة لسير التاريخ والعوامل التي تؤثر فيه ـ بها .

فهذه الأمور تجمعت حتى جعلت بين دعوة المسلم وبين استخدام وسائل العنف علاقة متينة ورابطة شديدة لم يتمكن معها من رؤية الموضوع على حقيقته .

وكونت لديه فعلاً شَرطياً منعكساً حلَّ معه المثير الشَّرطي محل المثير الطبيعي واقترن به .

ففي الوقت الذي استغل فيه من يريد قمع المسلم المثير الشَّرطي ، عجز المسلم أن يكشف ذلك ويفصل القضية عن ملابساتها .

فالمثير الحقيقي هو الدعوة ، إلا أن ارتباط استخدام وسائل العنف والأجهزة السرية في رحلة تاريخية مؤلمة ، قد أجهد المسلم وشلَّ كفاحه . فهو بذلك يؤدي دوره في مصارعة الثيران ذلك المثل الذي ذكره مالك بن نبي في كتابه (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) ؛ كيف أن الثور الهائج يهجم على المنديل الأحمر الذي يحمله المصارع ، ليصرفه عن الهدف الحقيقي ، إلى هدف اصطناعي يمكنه أن يطعن فيه . فتعلقنا بالقوة وظننا أن طريق الإصلاح لا يمرُّ إلا من الحكم ، لا أن الحكم نتيجة من نتائج الإصلاح ، هو الذي جعل موقفنا بهذا الشكل .

إن الله يؤيد عباده المخلصين ، ولكن الذين لا يسيرون على سُنَّة الله لا يشفع لهم إخلاصهم ، ومحاولة حلِّ الموضوع بطريقة غير سوية لا تعطي النتائج ، وعدم إعطاء النتائج يوقع في الحيرة ، ثم هذه الحيرة تقعد الإنسان عن جهده المثمر .

واستمرار هذا الموقف يمكِّن الآخرين من الإدانة ، وينسحب المسلم وكأنه لا يحمل رسالة ولا يدعو إلى هداية ، في صورة متطفل حاول أن يأخذ ما ليس له

بصورة غير شرعية ، فأبعد عن ذلك ، وبات متهماً ، فهو يعيش في هذه الحالة القلقة .

هذا الصراع ، وهذا الانسحاب ، نتائج لأفكار أساسية متأصلة لابد من تغييرها ، حتى يتغير موقف المسلم من المشكلات لأن الأزمة ليست في طبيعة المشكلات وإنما في كيفية تفسيرها .

وهذا هو الذي دعانا إلى أن نكتب هذا البحث .

والله الموفق للصواب

دمشق في رمضان 1385 هـ

جودت سعيد

نصوص

نبأ ابن آدم الأول[1]

(وَاتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ ابنَيْ آدَمَ بِالحَقِ إِذ قَرَّبَا قُربَانًا فَتُقُبِلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَم يُتَقَبَّل مِنَ الأَخَرِ قَالَ لأَقتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتَّقِين * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقتُلَنِي مَا أَنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيكَ لأَقتُلَكَ إِنِي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ * إِنِي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثمِي وَ إِثمِكَ فَتَكُونَ مِن أَصحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَت لَهُ نَفسُهُ قَتلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصبَحَ مِنَ الخَاسِرينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبحَثُ فِي الأَرضِ لِيُرِيَهُ كَيفَ يُوَارِى سَوءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيلَتَي أَعَجَزتُ أَن أَكُونَ مِثلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوارِيَ سَوءَةَ أَخِي فَأَصبَحَ مِنَ النَّادِمينَ) [المائدة 5/27-31] .

[1] في هذا النبأ الحق : قدرة الإنسان على أن يضحي بنفسه في سبيل هداية الآخرين .

نبأ نوح

(وَاتـلُ عَلَـيهِم نَبـأَ نُـوحٍ إِذ قَـالَ لِقَومِـهِ يَا قَـومِ إِن كَـانَ كَبُـرَ عَلَـيكُم مَّقَـامي وَتَذكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلتُ فَأَجمِعُوا أَمرَكُم وَ شُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُن أَمرُكُم عَلَيكُم غَمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ) [يونس 71/10] .

عصرُ الفِتَن[1]

● عن مسلم بن أبي بكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس ، والجالس خيراً من القائم ، والقائم خيراً من الماشي ، والماشي خيراً من الساعي » . قال : يا رسول الله ما تأمرني ؟ قال : « من كانت له إبلٌ فليحلق بإبله ، ومن كانت له غنمٌ فليحلق بغنمه ، ومن كانت له أرضٌ فليحلق بأرضه » . قال : فمن لم يكن له شيء من ذلك ؟ قال : « فليعمد إلى سيفه فليضرب بحدِّه على حرَّة ، ثم لينجو ما استطاع النجاء » .

أخرجه مسلم، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن المسيب وأبي سلمة بنحوه

● وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ في هذا الحديث ، قال : قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده ليقتلني ! قال :

---

[1] الأحاديث الواردة تحت هذا العنوان مأخوذة من مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري . طبعة السنة المحمدية (1369 هـ – 1949 م) ، صفحة 143 جـ6 بأرقام 4090 ، 4091 ، 4093 ، 4095 ، على التوالي .

فقال رسول الله ﷺ : « كن كابن آدم » وتلا يزيد ـ يعني ابن خالد الرملي ـ (لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ ..) [المائدة 28/5] .

● وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ؛ القاعد فيها خير من القائم ، والماشي فيها خير من الساعي ، فاكسروا قسيَّكم ، واقطعوا أوتاركم ، واضربوا سيوفكم بالحجارة ، فإن دُخِل ـ يعني على أحد منكم ـ فليكن كخير ابنيْ آدم » .

● وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر ! » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ـ وذكر الحديث ـ وقال فيه : « كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون البيت فيه بالوصيف ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، أو قال ما خار الله لي ورسوله ، قال « عليك بالصبر » ـ أو قال تصبر ـ ثم قال : « يا أبا ذر ! » قلت : لبيك وسعديك ، قال : « كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم ؟ » قلت : ما خار الله لي ورسوله ، قال : « عليك بمن أنت منه » . قلت يا رسول الله ، أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي ؟ قال : « شاركت القوم إذن » . قلت : فما تأمرني ؟ قال « خشيت أ يبهرك شعاع السيف ، فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه » .

أخرجه ابن ماجة

البَيعة على قَول الْحَق

عن عبادة بن الوليد عن أبيه عن جده قال : بايعنا رسول الله ﷺ على :

« السمع والطاعة

في العسر واليسر ،

والمنشط والمكره ،

وعلى أثرة علينا ،

وأن لا ننازع الأمر أهله ،

وعلى أن نقول بالحق أينما ، لا نخاف في الله لومة لائم » .

رواه مسلم

أعظَمُ الجهاد

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

رواه أبو داود والترمذي

ملاحظات

1- تسجيل الفكرة

إن هذا الموضوع قد كُكتب ولم يتم له النضج ، لهذا لم يأت متناسقاً مكتملاً ، والقصد من كتابته إنما هو تسجيل هذه الفكرة وإعلان هذا الرأي ، وإن خطورة الموضوع تقتضي وضع هذه العلامة على مفترق الطريق .

ومهما كان الأمر ، فإننا أردنا أن نعين اتجاه السير وأن نحدد الطريق ونرفع الالتباس ، وهذا الذي قصدناه .

2- للإعلان أكثر منه للإقناع

ثم إنني لم أكتب هذا الموضوع لكي أقنع الذين يخالفونني في هذه الطريقة للعمل الإسلامي ، وإنما حِرْصنا الذي يدفعنا لأن نعلن هذا الرأي هو أن يعرف الناس أننا على هذه الطريقة وعلى هذا الرأي في العمل الإسلامي .

والذي حملنا على الكتابة في هذا الموضوع هو إحجام أصحاب الأهلية الجديرين بالكتابة فيه بجدية ووضوح .

فحيث أن من هم أقدر منا على الكتابة في هذا الموضوع لم يفعلوا ، فإننا نستعين بالله على نبيِّين ما عندنا فيه بقدر الاستطاعة . ونعوذ بالله أن نَضِلَّ أو نُضَلَّ .

3- نمو هذه الفكرة

ومن الجدير بالملاحظة أن هذا الاتجاه آخذ بالنمو ، وإن كان لا يزال غير واضح وغير جلي ، وقد بدأ يظهر في أذهان كثير من الذين يهمهم العمل الإسلامي جدوى هذه الطريقة وإن لم يستطيعوا أن يتبنوها ويعلنوها بوضوح وصراحة على رؤوس الأشهاد . وهذا هو الذي يجعلنا نقدم هذا البحث على علاته ليكون دليلاً على السير .

4- رسوخ هذه الفكرة أعمق من أسلوب عرضها

ثم إنه ينبغي أن أعلن : أن هذه الطريقة في تعيين الواجبات العملية في مواضعها ، قد بلغت في نفسي من الوضوح واليقين ، أكثر بكثير مما استطعت أن أعبر عنه في عرضي .

ولا ضير فهكذا يكون كل عمل في بدئه أكثر ما يكون قابلاً للنمو والاكتمال .

وليس هناك من عمل أو جهد يولد مكتملاً من غير أن يحتاج إلى توضيح أو اكتمال . وإن شاء الله ستكون الكتابات القادمة أكثر وضوحاً واكتمالاً .

ونرجو أن نكون قد تفادينا بهذا التنبيه ، الوقوع في النظر إلى الأعمال الإسلامية وأفكار من يعملون فيها ، أنها تامة غير قابلة للاكتمال ، وغير قابلة للتحسين بإضافة ما يزيد فعاليتها ، أو حذف ما يعرقل نموها وسيرها على سنة الله في هذا الكون . لهذا ، مع اقتناعنا الكامل بسلامة الخطة ، لا ندَّعي أننا قدَّمنا من البيِّنات والحجج ما يكفي لتجلية الموضوع على حقيقته .

ولهذا ليس عجيباً أن يحوم حوله كثير من التساؤل ، بل كثير من الشك في أول الأمر . ولكن ذلك لن يحول بيننا وبين أن نقدم هذا ونعلنه ، ولاسيما أننا نعتقد أن الذين يعملون في سبيل الدعوة الإسلامية ، سيبين لهم إن آجلاً أو عاجلاً جدوى هذه الطريقة ، بل سيوقنون تماماً أنها هي الطريقة الوحيدة للجهد الفعال .

ومادام المستقبل لمثل هذا الاتجاه في العمل ، فما علينا إلا أن نعلنه ونقدمه بكل جرأة ، غير ناظرين إلى الذين لم يتبين لهم ، لأن السير في الطريق هو الذي يوصلنا إلى توضيح السبيل .

5- هل لدى المسلم مسوَّغ الحياة والموت ؟

ليست هناك حياة إن لم يكن للإنسان ما هو أعز من الحياة ، أي ينبغي أن يكون للإنسان شيء عزيز عليه ، لا يبالي بما يصيبه من أجله ، فيما إذا تعرض هذا العزيز للهوان والضياع .

فما الشيء الذي إذا تعرض للخطر لا يبالي المسلم أن يفقد الحياة قبل أن يفقده ، بحيث تعود الحياة بعده لا قيمة لها ؟

هل يمكن أن يجد المسلم هذا الشيء واضحاً بيَّناً جلياً ؟ بحيث يكون لائقاً لتعرضه للأذى ، وبحيث يجد الطمأنينة والراحة فيما يصيبه في سبيله !!

هل عند المسلم هذا الشيء ؟ وهل هو يمكن العثور عليه ؟ فإن كان ذلك ممكناً ينبغي أن لا يتوانى المسلم في طلابه .

فما هذا الذي يُهون على المسلم ما يخشاه الناس ؛ من السجن والعذاب والنفي والقتل ؟ ينبغي أن نستعرض ذلك :

ما هذا الذي يريح ضميره ويسعد لُبَّهُ إذا ابتُلي من أجله ؟

هل يسره أن يُسجن أو أن يُعذب لأنه أغرى شاباً على أن يقوم باغتيال أو أن يقوم بتفجير ؟

هل مما يسرُّه أن يؤخذ لأنه يسعى لمصلحة رجل أو زعيم ؟

هل مما يسرُّه ويطمئن قلبه أن يُعتقل لأنه يجمع أو يوزع منشورات سرية لا يمكن أن يتبناها كاتبها ؟ أو أنه يجمع أسلحة لأجل القيام بمثل تلك الأعمال ؟ وهل تلك الأعمال هي التي يجب أن يقوم المسلم بها أو لن يغير الأوضاع بواسطتها ؟ هل يليق بالمسلم أن يكون همه وهدفه عمل مثل تلك الأمور ؟

ينبغي أن يواجه المسلم نفسه بهذا كله كيلا يُصدم في النهاية ، ولكيلا يبدو له في نهاية الأمر ما لم يكن يريده ، ينبغي أن يعمل وهو يتصور كل هذه المواقف .

والحق أن المسلم لا يرضى ضميره عن شيء من هذا ، بل الأحرى أنني لا أرضى له هذا ولا أرضاه لنفسي .

إذن ، فإن كان هذا كله هو الذي يستطيع المسلم أن يجعله مسوِّغ تصرفاته وعمله ، فما هذا الذي يمكن أن يقدم له مسِّوِغ تحمُّل الأذى والعذاب باطمئنان وارتياح ؟

هل يمكن أن يجده ؟ بحيث إذا فعله وتبناه رضي ضميره وسعد قلبه ، وإن أدى ذلك العمل به إلى أشد أنواع البلاء .

هل يستطيع أن يوضح هذا ويجليه أمام الأنظار ؟

وهل مما يرضي ضميره أن يسجن بسبب تبليغه لرسالات الله تبليغاً صحيحاً سليماً كاملاً ، بحيث يبين للناس حقيقة ما يطلب منهم ربهم ؟

ليس هذا مما يوبخ ضمير المسلم من أجله .

ليس في هذا ما يدعو إلى القلق ، بل إن هذا العمل هو الذي في سبيله يمكن أن يرضى المسلم بما يلقاه . إنه يرضى أن يكون ذنبه أن يكون مؤمناً ، وأن يقول ربي الله .

فيعترف بهذا الذنب ولا يتنازل عنه .

ففي اليوم الذي يصبح العمل بمقتضى قوله تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَ يَخشَونَهُ وَلاَ يَخشَونَ أَحداً إِلاَّ اللهَ) [الأحزاب 39/33] .

في اليوم الذي يصير مثل هذا العمل جريمة ، يمكن للمسلم أن لا يبالي في الوقوع في مثل هذه الجريمة .

وفي الوقت الذي يصير كتمان الحق واجباً وفريضة ، يمكنه أن يخالف هذا الواجب وهذه الفريضة باطمئنان .

قال الله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكتُمُونَ مَا أَنزَلنَا مِنَ البَيِنَاتِ وَ الهُدَى مِن بَعدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُم اللهُ وَ يَلعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيهِم وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [البقرة 2/159-160] .

ولا يبالي المسلم أن يكون ذنبه هو إيمانه بالله العزيز الحميد .

(وَمَا نَقَمُوا مِنهُم إِلاَّ أَن يُؤمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ) [البروج 8/85] .

ولا يبالي المسلم إذا كان ذنبه أن يبيّن للناس معنى (لا إله إلا الله) معنى أفضل كلمة قالها رسول الله ﷺ والنبيون من قبله .

والمسلم العادي قد يظن أن مثل هذه الدعوة لا تؤثر ، لأنه قد خفي عليه ما تحتوي كلمة لا إله إلا الله من بركات لا يستطيع أن يصبر عليها الذين يستعبدون البشر ، فبخس المسلم الدعوة حقها لجهله بحقيقتها .

إذن لا مانع أن يُبتلى المسلم ، وأن يُسجن في سبيل إخراج الإسلام من سجن الكتمان والتحريف ، الذي أودعه المسلم فيه فأصبح خارج نطاق الدعوة

والبيان ، بانتظار توفر القوة أو الظروف المساعدة . إن بيان الإسلام ليس بحاجة إلى انتظار القوة ، ولا للظروف المناسبة . إن مثل هذه الأفكار هي التي حالت بين الدعوة إلى الله وبين الإصلاح الاجتماعي الذي ينبغي أن يقوم به الإسلام .

وأخيراً نريد أن نقول بصراحة وشجاعة وإباء دون أن نشعر بشيء من الضعف والتردد :

لا مانع أن يكون ذنب المسلم كذنب ابن آدم الأول :

أي أن يتقبل الناس دعوة الله منه ، وأن لا يتقبل من الآخرين دعواهم الباطلة .

وإن بسط هؤلاء إلى المسلمين أيديهم بسبب هذا الذنب ، فنحن لا نبسط أيدينا إليهم بل كما قال ابن آدم الأول :

(لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقتُلَنِي مَا أَنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيكَ لأَقتُلَكَ إِني أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ) [المائدة 28/5] .

6- المقصود من مذهب ابن آدم الأول

فما ذهب إليه ابن آدم الأول هو الذي نريد أن نبينه :

1- القصد من هذا هو ألا يكون ذنب المسلم الدعوة إلى قتل أو اغتيال أو دفع الناس إلى شيء من هذا .

2- والقصد من هذا ألا يكون للمسلم ذنب إلا أن يؤمن بالله العزيز الحميد ، إلا أن يقول ربي الله .

3- القصد من هذا ألا يكون للمسلم ذنب إلا أن يتقبل الناس دعوته إلى الله .

4- القصد من هذا ألا يعرض الإنسان رأيه بالقوة على الآخرين ، وأن لا يتنازل الإنسان عن رأيه خوفاً من القوة .

5- القصد من هذا ألا يتخذ المسلم في دعوته إلى الله غير الطريقة التي سار عليها الأنبياء من مبتدئها إلى منتهاها .

6- القصد من هذا أن تتحمل الآلام من أجل مبدئك لا أن تفرض مبدأك بالآلام على الآخرين .

7- القصد من هذا أن تبذل نفسك في سبيل هداية الآخرين وإرشادهم .

8- القصد من هذا أن تقرب المثل الأعلى للخلق في التمسك بالمبدأ .

9- القصد من هذا أن لا تتبنى شيئاً لا تلتزمه إلا إذا كنت مستعداً لالتزامه وتبنيه في كل وقت وعلى مشهد من الناس جميعاً .

وخلاصة القول في هذا كله :

أن لا توجه إلينا تهمة غير التهمة التي وجهت للأنبياء كما وردت في القرآن ، وهي قول : (رَبُّنا الله) .

7- تنبيه مهم وتمييز ضروري بين من يعمل لبناء المجتمع الإسلامي ومن يمثله

وهنا عند هذه النقطة أرى من الواجب علي أن أفصل في موضوع مهم يلتبس فيه الأمر على كثير من الناس ، قد يقول قائل :

أين أنت من آيات الجهاد والقتال في القرآن ؟ هل تريد أن تؤمن ببعض الكتاب فقط ؟ أم هل تريد أن تنسخ آيات القتال من القرآن ؟

أسارع إلى القول : إنني لا أريد أن أنسخ الكتاب ، ولا أن أُعطل آيات الجهاد والقتال ، حاشا لله أن أفعل ذلك . إلا أنني أريد أن أفرق بين حالتين :

1- حال من يدعو إلى إنشاء المجتمع الإسلامي أو إصلاحه والحيلولة دون فساده .

2- وحال من يمثل المجتمع الإسلامي المتميز الذي أسلم وخضع للإسلام .

إن واجب الصنف الأول فقط هو الذي أبحثه بينما أنت تريد أن تكلفني واجب الصنف الثاني .

ولأجل أن يتوضح لك هذا بصورة أدق ، أضرب مثلاً يقرب الأمر ويزيده وضوحاً :

إن الله يأمر بقطع يد السارق . فيا أيها المسلم الذي تعيش في مجتمع لم يخضع لأمر الله ، هل ترى واجباً عليك أن تقبض على السارق وتقطع يده ؟ وهل إن لم تفعل ذلك تكون قد أبطلت آيات الله ونسختها ؟

إن الذي يقطع يد السارق هو الذي يمثل المجتمع المسلم .

فكيف تريد أن تقطع يد السارق الذي يعيش في مجتمع لم يخضع لأحكام الإسلام أو انه تحلل من أحكام الإسلام ؟

هل اقتنعت الآن بأنك لست معطلاً لآيات الله إن لم تقطع يد ذلك السارق ؟ وإن كان الأمر كذلك في حدود الله فكيف ظنك بأمر الجهاد إلى يُعتبر من أخطر الأمور[1] ؟

هل تظن أنه ينبغي أن تنفذه ؟ هل أعطاك الله هذا الحق في هذا الوضع ؟ هل تعتقد أن الله قد فرض عليك هذا الواجب ، واجب القتال في مجتمع لم يخضع للإسلام ، بينما تعجز عن الأمر الذي أوجبه الله عليك في كل الحالات ، ألا وهو قول الحق حيثما كنت لا تخاف في الله لومة لائم ؟

إن قول الحق هو الذي أُمرتَ به ، وبه يتكون المجتمع الإسلامي .

فعندما يتكون المجتمع الإسلامي ، ويدعوك من وُكِّل إليه أمر الجهاد وتتخلف ، تكون بذلك قد تخليت عن فرض عظيم من فرائض الإسلام :

(وَمَن يُوَلِهِم يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِفاً لِقِتَالِ أَو مُتَحَيزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَد بَاءَ بِغَضَبٍ مَنَ اللهِ وَمَأوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئسَ المَصِيرُ) [الأنفال 17/8] .

يتبين مما سبق ، أنه إذا اجتمع بعض الأفراد سراً ، وأصدروا حكم الإعدام ، أو قرروا القيام بحركة انقلابية ، وأعطوا لأنفسهم سلطة تنفيذ مثل هذه الأحكام ، لا يكونون قد خدموا الإسلام وأيدوه ، لأن الإسلام لا يعطي أمر إصدار مثل هذا الحكم وتنفيذه ، حتى في القصاص من القاتل المعتدي ، لأي فرد عادي في المجتمع الإسلامي ، ولا لبعض الأفراد الذين لم يسلم لهم المجتمع بذلك .

[1] راجع كتاب السياسة الشرعية لابن تيمية .

فكيف يخول المسلم لنفسه تنفيذ مثل هذا الأمر الخطير ، واستباحة الدماء ، في أوضاع فيها كثير من الالتباس والغموض ، بحيث يُقدم بهذا ما يسوغ للآخرين أن يلصقوا به تهم الإرهاب وغيره ؟!

وإني لا أتَّهم هؤلاء في حسن نواياهم ، وصدق إخلاصهم ، وحبهم للإسلام ، وإنما أرى أن مثل هذا الخطأ ناشئ عن نقص في الإدراك الفني للموضوع (فقه القضية) أكثر من أن يكون مأتاه من الإعواز الخلقي .

وإذا تبين لك الفرق بين واجب من يدعو إلى إنشاء المجتمع الإسلامي أو إصلاحه ، وبين من يمثل المجتمع الإسلامي المتكون ، سهُل عليك حل كثير من المشكلات التي تخفى على كثير من الناس .

ففي كلتا الحالتين يقتضي الأمر ما سأُبيِّنه من طريقة الدعوة .

8- تنبيه هام آخر

عمل بعض الأنبياء لم يتجاوز عمل البناء كعيسى (عليه السلام)

إن التمييز السابق يبين موضوعاً آخر ، وهو أن عيسى ، عليه السلام ، قد توفاه الله وهولا يزال في المرحلة الأولى ، وهذا الذي يخطئ فيه من يجعل فرقاً في جوهر الدعوة بين الإسلام والمسيحية .

ويمكن ملاحظة هذا في تاريخ الأنبياء وتتبع دعواته ، فمنهم من تمكن من بلوغ المرحلتين كموسى ومحمد ، صلى الله عليهما ، ومنهم من لم يتجاوز المرحلة الأولى كعيسى ، عليه السلام .

وقد اختلط الأمر على كثير من الناس حيث جعلوا أن ما جاء به عيسى دعوة سلام فقط أخذاً ببعض ما ورد في الإنجيل :

« باركوا لاعنيكم » [لوقا ، إصحاح 6 رقم 28] .

« وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم . من ضربك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر أيضاً » [لوقا ، إصحاح 6 رقم 29] .

« بل حبوا أعداءكم » [لوقا ، الإصحاح 6 رقم 35] .

ألا أن الذين ينشرون مثل هذه الأقوال يغفلون القول الآخر الذي ورد في الإنجيل :

« ... أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فائتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي » [لوقا ، إصحاح 19 رقم 27] .

وكذلك ما ورد : « .. جئت لألقي ناراً على الأرض . فماذا أريد لو اضطرمت .. أتظنون أنني جئت لأعطي سلاماً على الأرض كلا أقول لكم بل انقساماً .. » [لوقا ، إصحاح 12 رقم 51] .

« ... لا تظنُّوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض .. ما جئت لألقي سلاماً ، بل سيفاً . فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه .. » [متى ، 10-34] .

ولو أن القرآن جُهِلَ ولم يعرف الناس إلا قوله تعالى :

(ادفَع بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ) [فصلت 34/41] .

وكذلك : (... وَاصبِر عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِن عَزمِ الأُمُورِ) [لقمان 16/31] .

لكان في الإمكان أن يصدر مثل ذلك الحكم على القرآن أيضاً .

9- القتال ليس محظوراً مطلقاً ولا مأموراً به مطلقاً

ومن هنا يتبين أننا لا نحظر القتال مطلقاً ، كما يظهر عبارات بعض دعاة السلام من الكتاب ، بل نعتبر الجهاد ماضياً ومستمراً ، إلا انه على المسلم أن يعلم متى يجوز له أن ينفذ حدود الله .

ويمكن أن أقول بكثير من التأكيد إنه بقدر ما تضرر المسلمون من محاولة استعمال الجهاد والقتال في الموضع الأول ، حيث المسلمون فيه لا يمثلون المجتمع المسلم المتميز عن غيره ، فقد تضرر المسلمون من تقصير الذين يدعون أنهم يمثلون الأمم التي تسمى إسلامية وتفريطهم في اتباع أمر الله بالجهاد ، بل كان ضرر هذا التفريط أعظم .

10- المسلمون أبعد الناس عن تبني الانقلاب السياسي وإن لم يصرحوا به

إن تصور المسلمين لحقائق الأشياء ، وإدراكهم بأن الأوضاع لا يمكن أن تتغير بالقوة ، يحول بينهم وبين أن يتبنوا استخدام القوة والعنف كوسيلة للوصول إلى الحكم .

ولذلك ، وباستقراء الأحداث التي جرت وما زالت تجري في العالم الإسلامي ، فإننا لا نجد أن المسلمين الذين يسعون لإقامة الحياة الإسلامية قد قاموا بأي انقلاب .

إن ما عند المسلمين من إدراك بأن تغيير الأوضاع لا يكون بالقوة ، يحول بينهم وبين أن يتبنوا في الواقع طريقة استعمال القوة من أجل الوصول إلى الحكم .

لذا لا نرى حدثاً حقيقياً يمكن أن يقال عنه إن المسلمين هم الذين قاموا بالانقلاب ، سعياً لإقامة الحياة الإسلامية ، إلا أنهم أيضاً مع ظهور هذه الحقيقة فهم لم يعطوا الدليل الواضح بأنهم لا يتبنون تلك الوسائل ، بل كان يمكن أن يلاحظ أن ذلك مما يدور في أذهان الكثير من المسلمين ، وإن لم يقوموا بعمل جدي ، لعلهم أن سوء الأوضاع الشديد لا يكون إصلاحه بانقلاب سياسي .

بل يمكن أن يقال إنهم لم يتبنوا . قط . القيام بانقلاب سياسي يمثلون وجهه الحقيقي في أي بلد إسلامي .

والمسلمون أخذوا يدركون على نطاق واسع ، وبشيء من الغموض ، عدم جدوى القيام بمثل هذه الأعمال ، إلا أنهم يعيشوا على أعقاب ذلك الغموض ، فهم لا يمثلون الفعالية التي يمكن أن يقوم بها من وضحت لهم الحقائق ، وعلى أساسها كيفوا مساعيهم وأعمالهم في الاستخدام الجدي لوسائل تغيير النفس الذي هو أساس كل تغيير سياسي أو اقتصادي .

نماذج من عمل الأنبياء

في الصبر على الأذى دون أن يقوموا بأي أذى

عمل من يبني الحياة الإسلامية :

والآن أريد أن أذكر العمل الذي يقوم به من يريد أن ينشئ المجتمع الإسلامي المتميز ، كما ورد في القرآن من حال الأنبياء كما قلت في المقدمة .

ففي كل المواطن التي يشرح لنا القرآن فيها الخصام والنزاع الذي حدث بين رسل الله وأقوامهم ، يبين لنا أن سبب العدوان الذي لحق بالأنبياء ، لم يكن إلا لأنهم يقولون : ربُّنا الله ، ولم يكن لأنهم قاموا بضرب أو قتل أو اغتيال .

قال تعالى :

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(9)قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(10)قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(11)وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ(12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13)وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) [إبراهيم 14/14-9] .

فما جاء به الرُّسل هو البينات .

وموقف الأقوام أنهم ردُّوا أيديهم في أفواههم وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به .

وكان جواب الرُّسل :

(وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأتِيَكُم بِسُلطَانٍ إِلاَّ بِإِذنِ اللهِ وَعَلى اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ المؤمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَد هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيتُمُونَا) [إبراهيم 14/11-12] .

فاك ردُّ الذين كفروا لرسلهم :

(لَنُخرِجَنَّكُم مِن أَرضِنَا أَو لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوحَى إِلَيهِم رَبُّهُم لَنُهلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) [إبراهيم 13/14] .

والآن نريد أن يكون لنا أسوة بالأنبياء في طريقة دعوتهم : نعلن البينات التي جاء بها الرسل ، فيكفرون بهذه البينات ويتوجهون إلينا بالأذى .

ونقول : (قَد هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيتُمُونَا) [إبراهيم 12/14] .

ويقول الذين كفروا : (لَنُخرِجَنَّكُم مِن أَرضِنَا أَو لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا) فهنا يأتي أمر الله : (لَنُهلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) [إبراهيم 13/14] .

بيان هذا العمل في دعوة نوح (عليه السلام)

وهكذا كان نوح صريحاً جداً في دعوته حين أعلن لقومه طريقته ، قال تعالى :

(وَاتلُ عَلَيهِم نَبأَ نُوحٍ إذ قَالَ لِقَومِهِ يَا قَومِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيكُم مَّقَامي وَتَذكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلتُ فَأَجمِعُوا أَمرَكُم وَ شُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُن أَمرُكُم عَلَيكُم غَمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ) [يونس 71/10] .

واضح هنا أن الذي كبر على قوم نوح لم يكن قيام نوح بعمل انقلابي أو عدواني ، وإنما كان ذنبه هو مقامه وتذكيره بآيات الله . ولهذا قال : إن كان هذا العمل جريمة في نظركم فإني أتبل تبعة عملي :

(فَأَجمِعُوا أَمرَكُم وَ شُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُن أَمرُكُم عَلَيكُم غَمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ) [يونس 71/10] .

ومعنى هذا أن نوحاً استمر في دعوته الطويلة استمراراً سليماً بحيث أنه رفض قومه هذه الدعوة وحاولوا أن ينالوا منه لم يعزم على قتالهم إنما عزم على الصبر إلى أن يقتل هو .

بيان هذا العمل في دعوة هود (عليه السلام)

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُم هُوداً قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِن إِلَهٍ غَيرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَومِهِ إِنا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَومِ لَيسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِني رَسُولٌ مِن رَّبِ العَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُم رِسَالاَتِ رَبِي وَ أَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ) [الأعراف 7/65-68] .

فهناك عرَّض نوح نفسه للموت ، أما هنا فإن هوداً ينصح ويبيّن وهذا يعني أنه مازال يأمل بإيمان قومه .

ومن هذه المقارنة البسيطة ، يجب علينا أن نعلم نجاح الدعوات لا يمكن أن يكون إلا عن طريق التبليغ الكامل لآيات الله ، سواء أقبلها الناس أم لم يقبلوها ، مادامت في مرحلة التكوين . لأن الذي لا يقبل الرأي عن طريق الإقناع ، قد تتمكن أن ترغمه على رأيك بالقوة ، إلا أنه سينقض عليك حتماً متى سنحت له الفرصة ليثبت لك أنه لم يؤمن بفكرتك .

بيان هذا العمل في دعوة موسى (عليه السلام)

يقصُّ الله علينا في سورة غافر الدعوة التي قام بها موسى (عليه السلام) بقوله :

(وَلَقَد أَرسَلنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرعَونَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِالحَقِ مِن عِندِنَا قَالُوا اقتُلُوا أَبنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاستَحيُوا نِسَاءَهُم وَمَا كَيدُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ * وَقَالَ فِرعَونُ ذَرُونِي أَقتُل مُوسى وَليَدعُ رَبَّهُ إِنِي أَخَافُ أَن يُبَدلَ دِينَكُم أَو أَن يُظهِرَ فِي الفَسَادَ * وَقَالَ مُوسى إِنِي عُذتُ بِربِي وَرَبِكُم مِن كُلِ مُتَكَبِرٍ لاَّ يُؤمِنُ بِيَومِ الحِسَابَ) [غافر 40/22-27] .

بعد هذه المحاورة :

يتدخل مؤمن من آل فرعون ليوضح أهداف موسى ويجعل منها التهمة الموجهة إليه ، ويثبت أن تلك التهمة لا يجوز أن تؤدي به إلى القتل :

(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤمِنٌ مِن ءَالِ فِرعَونَ يَكتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِي اللهُ وَقَد جَاءَكُم بِالبَيِنَاتِ مِن رَّبِكُم وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً

يُصُبكُم بَعضُ الَّذِي يَعِدُكُم إِنَّ اللهَ لاَ يَهدِي مَن هُو مُسرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَومِ لَكُمُ المُلكُ اليَومَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأسِ اللهِ إِن جَاءَنَا) [غافر 29-28/40] .

لقد وضَّح الرجل المؤمن أهداف موسى (عليه السلام) ودافع عنها ، واستطاع أن يؤكد للملأ المجتمعين أمام فرعون ، أن التهمة الموجهة لموسى لا يجوز أن تكون تهمة ! لأنها دعوة واضحة وأهداف سامية يدعو الناس إليها ، ثم وضَّح هذه الأهداف بأنها انتقال من عبادة فرعون إلى عبادة الله .

فلو أن لموسى ذنباً غير قوله ربي الله ، لما دخل الرجل المؤمن الميدان ليدافع عن موسى أمام أعظم طاغية على وجه الأرض .

ولو نظرنا في آية :

(ذَرُونِي أَقتُلْ مُوسَى وَليَدعُ رَبَّهُ إِنِي أَخَافُ أَن يُبَدِلَ دِينَكُم أَو أَن يُظهِر فِي الأَرضِ الفَسَادَ) [غافر26/40] .

لوجدنا فيها معانٍ كثيرة وترشدنا إلى أهمية دعوة موسى السِّلميَّة ، وترينا تأثيرها في نفوس الناس عامة ، وفي نفس فرعون بصورة خاصة . فلو أن فرعون استطاع أن يوجه تهمة القتل لموسى أو أنه استطاع أن يثبت أن لموسى ذنباً يدينه لما احتاج إلى أن يقول : ذروني أقتل موسى ، أي أنه لما احتاج أن يلتمس رضا بطانته وموافقتها على تنفيذ حكم القتل على موسى .

ولكن موقف موسى (عليه السلام) البعيد عن كل التهم ، دفع فرعون ، مع غطرسته ، أن يستشير بطانته في هذا الموضوع الذي أصبح خطيراً ، لأنه واجه الضمير الإنساني ودخل إلى أعماقه على مشهد من فرعون وبطانته .

ففرعون ، هذا الذي جُرِّدِ من كل مسوِّغ للقيام ضدِّ موسى لم يجد شيئاً يتَّهمه به ، لذلك اضطر أن يواجه الحق بالباطل صراحة ، فقد فُهِمَ من كلام فرعون على موسى أن آراء موسى وأفكاره خطيرة لأن مثل هذه الآراء قادرة على تغيير نظامه .

ومادام يبغي تغيير الأوضاع ، فإن فرعون لا ينظر إليه بأنه يريد تغيير هذه الأوضاع بالقوة ، وإنما ينظر لموسى بأنه قادر على تغيير هذه الأوضاع لأنه لا يجد في نظامه قوة تستطيع أن تواجه الأفكار التي يبيِّنها ، وكذلك لا تستطيع مواجهة ضمائر الناس وعقولهم ، التي كادت أن تقنع بأفكار موسى الربانية تاركة نظام فرعون الفاسد وراءها ظهرياً . لذا وجد فرعون أن استمرار هذه الأفكار يعني انهياراً لنظامه ودينه وبالتالي سقوطاً لحكمه . لذا طلب فرعون قتل موسى قبل أن يبلغ ذروة أهدافه .

إن الإحساس بقوة الحجة في نفوس الناس هو الذي حمل فرعون ويحمل كل الذين يخافون على نظمهم في كل مكان وزمان من قوة الحجة أكثر من خوفهم من قوة السلاح ، بل إنهم يتمنون أن يحاربهم الدعاة ليبطشوا بهم دون تردد .

وإننا نرى أن كل الطواغيت عندما يريدون أن يحكموا على أي داعية يلجؤون إلى اتهامه بالإرهاب أو الاغتيال ، فهم يفتشون دائماً في سجله التاريخي لعلهم يجدون فيه ما يدنيه .

وفرعون نفسه لم ينسَ أن يرجع إلى سجل موسى التاريخي علَّه يتمكن من العثور على شيء يدينه به ، فلم ينس أن يلوح أمام الناس بفعلة موسى حيث قال :

(أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثتَ فِينَا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلتَ وَأَنتَ مِنَ الكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلتُهَا إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِينَ) [الشعراء 26/18-20] .

ففرعون لم يكن نموذجاً غريباً فنحن لا نزال نرى حجة فرعون إلى يومنا هذا حيث يقولون : كيف تكون ضدَّ نظامنا وأنت تغذَّيت من خيرات الوطن ؟

كيف تكون ضدّنا وقد أنعمنا عليك فأطعمناك وكسيناك ومنحناك الوظائف ثم تجحد هذه النعمة وتكفر بها ؟

ألم نربِّيك فينا وليداً ؟ ولبثت فينا من عمرك سنين ؟

وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ؟

فهذه الأمور بذاتها التي يمنُّ بها على الإنسان وتؤخذ حجة لإدانته سواء في عهد فرعون أم في عهد غيره على مرِّ التاريخ .

فكأن الإنسان إذا أكل وشرب ولبس تحت ظل نظام ما فلا بد له أن يطيع هذا النظام ويتعبد به . إلا أن هذه المسلَّمة التي لم يسلم بها الأنبياء ، والتي لا يجوز أن يسلَّم بها عاقل هي التي أساسها يُستعبد البشر على طول التاريخ .

ولهذا ردُّ موسى حازماً واضحاً حين أنكر منه فرعون عليه حيث قال : (وَتِلكَ نِعمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَن عَبَّدتَّ بَنِي إِسرَائِيل) [الشعراء 22/26] .

وقد أجاب موسى على الشطر الثاني من التهمة الذي يتمثل بحادثة القتل التي وقعت من موسى خطأً في ما مضى من تاريخه :

(قَالَ فَعَلتُهَا إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِينَ * فَفَرَرتُ مِنكُم لَمَّا خِفتُكُم فَوَهَبَ لِي رَبِي حُكماً وَجَعَلَنِي مَنَ المرسَلَينَ) [الشعراء 20/26-21] .

يريد بهذا أن القتل حدث من موسى من الوكز ، أي أن القتل حدث خطأ ، وأن هذا الأمر ليس له علاقة بالحادث الجديد وهو الدَّعوة الجديدة التي هي موضع النزاع .

ومن هذا العرض الموجز لابد لنا أن نقول :

إن على المؤمن الداعي تكوين الجو الصافي الذي يبعد عنه تهم أعدائه بأشياء لا يؤمن بها ولا يدعو إليها ، بحيث إذا أصرُّوا على إدانته لا يستطيعون أن يدينوه إلا بالفكرة التي ينادي بها ويعتز بأن يُقتل من أجلها . فحين يثبت المؤمن الداعي على مبدئه ويعرضه على الآخرين دون لبس أو غموض يهلك من هلك عن بيِّنة ويحي من حيَّ عن بيِّنة .

بيان هذا العمل في دعوة شعيب (عليه السلام)

(قَالَ المَلأُ الَّذِينَ استَكبَرُوا مِن قَومِهِ لَنُخرِجَنَّكَ يَا شُعَيبُ وَالَّذِينَ آمِنُوا مَعَكَ مِن قَريَتِنَا أَو لَتَعُودَنَ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَو كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افتَرَينَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِن عُدنَا فِي مِلَّتِكُم بَعدَ إِذ نَجَّانَا اللهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيءً عِلمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلنَا رَبَّنَا افتَح بَينَنَا وَبَينَ قَومِنَا بِالحَقِ وَأَنتَ خَيرُ الفَاتِحِينَ) [الأعراف 7/88-89] .

فإن هذا التهديد من الملأ المستكبرين من قوم شعيب لشعيب بالإخراج من قريتهم أو الرجوع إلى ملَّة قومه ، لم يكن إلا بسبب مفارقته لهذه الملة أو إعلانه لهذه المفارقة ، ولهذا كان جواب شعيب حاسماً إذ قال بكلِّ قوة وجرأة :

(قَدِ افتَرَينَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِن عُدنَا فِي مِلَّتِكُم بَعدَ إِذ نَجَّانَا اللهُ مِنهَا ...) [الأعراف 7/79] .

وهكذا كان عيسى (عليه السلام)

قال الله تعالى عن عيسى (عليه السلام)

(وَيُعَلِمُهُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَالتَّورَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُلاً إِلَى بَنِي إِسَرائِيلَ أَنِي قَد جِئتُكُم بِآيَةٍ مِن رَّبِكُم أَنِّي أَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيَرا بِإِذنِ اللهِ وَأُنَبِئُكُم بِمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ مِنَ التَّورَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعضَ الَّذي حُرِمَ عَلَيكُم وَجِئتُكُم بِئَايَةٍ مِن رَّبِكُم فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِي وَرَبُّكُم فَاعبُدُهُ هَذَا صِراطٌ مُّستَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنهُمُ الكُفرَ قَالَ مَن أَنصَارِي إِلى اللهِ قَالَ الحَوارِيُّونَ نَحنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَا بِاللهِ وَاشهَد بِأَنَّا

مُسلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلتَ وَاتَّبَعنَا الرَّسُولَ فَاكتُبنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [آل عمران 3/48-52] .

فهكذا دعوة عيسى (عليه السلام) :

جاء بالآية من ربه وشهد هو والحواريون بأنهم مسلمون ومؤمنون بما أنزل الله ، فمكر الكافرون ، ومكر الله ، والله خير الماكرين .

ولقد ورد في إنجيل متَّى الإصحاح 26 :

« ... وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستلَّ سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فقال له يسوع ردَّ سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف يهلكون » (54) .

« لا تظنون أني جئت لألقي سلاماً على الأرض . ما جئت لألقي سلاماً ، بل سيفاً . فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ... » (متَّى 10-34)

بيان هذا العمل في دعوة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)

وأوضح ما يكون العمل في حالتيه في دعوة الرسول ﷺ :

فقبل أن يتكون المجتمع الإسلامي المتميز لم يأمر أصحابه بشيء من أعمال العنف بالقتال أو القتل . وإنما كان ذلك حين تكوَّن المجتمع المستقبل المتميز الذي خضع لحكام الإسلام وسيطر على المجتمع فنفَّذ أمر الله بهم وعليهم .

وهنا ينبغي أن نذكر ملاحظة موجزة . وإن كانت تستحق التفصيل . وهي أن المؤمن الداعي عليه أن يلتزم الدعوة والبيان لا يتجاوزها إلى تطبيق الحدود حتى يسلم المجتمع له .

وبعد أن يسلم المجتمع له أيضاً ، لا يكون الأمر فوضى بحيث يقتل من يشاء ، وإنما يحرم الإسلام قتل من لفظ الإسلام ولو كان بمجرد اللسان ، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها حديث كحديث الذي قطع اليد ولاذ بشجرة ، وحديث أسامة الذي جاء فيه : هلا شققت عن قلبه ، وآيات من القرآن مثل قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا اللَّذينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبتُم فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَن أَلقَى إِلَيكُمُ السَّلامَ لَستَ مُؤمِنًا تبتَغُونَ عَرَضَ الحَيَةِ الدُّنيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِن قَبلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيكُم فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيراً) [النساء 94/4] .

ففي هذه الآية توبيخ واتهام اللذين لم يكبحوا دوافع العدوان ، ولم يخضعوا ذلك لأمر الله ، فقد اتهمهم الله بسوء القصد بأنهم يبتغون عرض الحياة الدنيا ، ومثل هذا العمل يليق بالجاهلين لا بالمسلمين .

وهذا معنى قوله تعالى :

(كَذَلِكَ كُنتُم مِن قَبلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيكُم) .

بل لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كانت أوامر الرسول صريحة في الوقت الذي لم يسيطر المجتمع فيه على نفسه فنهاهم عن أن يقوموا بأي بسط لليد بقصد الأذى أو حتى رد العدوان .

وقد قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى :

(أَلَمۡ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوا أَيدِيَكُم وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنهُم يَخشَونَ النَّاسَ كَخَشيَةِ اللهِ أَو أَشَدَّ خَشيَةً) [النساء 77/4] .

قال ابن كثير : كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة .. وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرَّقون ويودون لو أُمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم . ولم يكن الحال إذ ذلك مناسباً لأسباب كثيرة .. الخ .

ثم قال : عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي بمكة فقالوا يا نبيَّ الله : كنّا في عزة ونحن مشركون فلما آمنّا صرنا أذلة قال :

« إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » .

فلما حوَّله الله إلى المدينة أمره بالقتال . هذا ما قاله ابن كثير .

وقال الشيخ رشيد رضا :

« والظاهر أن الآية في جماعة المسلمين وفيهم المنافقون والضعفاء ، ولاشك أن الإسلام كلفهم مخالفة عاداتهم في الغزو والقتال لأجل الثأر ، لأجل الحمية والكسب ، وأمرهم بكفَّ أيديهم عن الاعتداء ، وأمرهم بالصلاة والزكاة ناهيك بما فيهما من الرحمة والعطف ، حتى خمدت من نفوس أكثرهم تلك الحمية الجاهلية ، التي حلَّ محلَّها أشرف العواطف الانسانية . وكان منهم من يتمنى لو يفرض عليهم القتال .. ورأوا تركه ذلاً فطلبوا الإذن به .. الخ » ، والقصد مما سقناه من كلام الله ومما ورد في التفسير إثبات الأمر من الله للمؤمنين بكف اليد

. فإن هذا الأمر ثابت وإن اختلف في التعليل . وقد ذكر غير واحد من المفسرين غير وجه واحد من التعليل .

وقد تبين مما سبق ذكره ، كما هو مقرر في كل المجتمعات البشرية : أن القاعدة التي بمقتضاها احتاج الناس إلى قانون ، تستند إلى إقناع أولاً وإلزام ثانياً ، وأن القانون في حاجة إلى إقرار وموافقة المجتمع ، وأن الإلزام به إنما يكون بعد إقراره من قِبَل المجتمع .

فلا بد من الحصول على الموافقة للإقرار قبل الإلزام ، وهذا الذي عبرنا عنه بالدعوة إلى إنشاء المجتمع الإسلامي أو إصلاحه أولاً . ثم بتمثيل المجتمع الذي أقرَّ وخضع وتميَّز ثانياً ، ومن علاقة هذا المجتمع المتميز بالمجتمعات الأخرى .

(إلاَّ أن الأخير ليس موضوع بحثنا هنا) وهذا الذي حاول أن يذكره الأستاذ المودودي معقِّباً على مؤامرة اغتيال رئيس وزراء باكستان لياقت علي خان حيث قال :

« إنه ليس شيء أشأم لقطر من الأقطار ، من أن تنتزع فيه صلاحيات القضاء والحكم ، من العقل والعلم والحجة والرأي العام ، وإن الأمة لا تكون عدوا لنفسها ، ولا هي مجنونة مشوشة الحواس ، لا يمكن أن تكون من السفاهة والحمق ، بمكان أن تكون من السفاهة والحمق ، بمكان يسلم فيها الحكم إلى قاضي السف المسلول ، الذي هو أعمى بمعنى الكلمة . ولئن كنا لا نريد أن

نجعل مستقبلنا مظلماً حالكاً ، فحتم علينا الوقوف بكل ما نملك من قوة ، دون انجراف البلاد في هذا الاتجاه الخطر المهدد لكيان البلاد ... »[1] .

وكما ثبت فيما سبق ، أن الأمر بكفِّ اليد في تلك الحالة التي لم يتهيأ فيها للدعوة مجتمع متميز مسلم بها ، كذلك جاء الأمر بالإذن بالقتال حين تهيأ للدعوة المجتمع الذي يقرُّ بها ويخضع لها . وهذا الذي كان يسعى إليه الرسول ﷺ حين كان يعرض نفسه على القبائل .

فكان واضحاً من حياة الرسول ﷺ وأقواله وواقع دعوته ، أنه في أثناء تكوين المجتمع الإسلامي لا محل لأن يجعل الإنسان نفسه قاضياً لتنفيذ الأحكام ولاسيما الأحكام المتعلقة بالدماء والحدود .

وقد جاء الإذن قبل أن يأتي الأمر :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَأَنَّ اللهَ عَلَى نَصرِهِم لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيرِ حَقٍ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ) [الحج 38/22] .

فقد لحق بهم الأذى ولم يكن لهم ذنب إلا أن يقولوا رُّبنا الله وقد علم الجميع أنه لم يكن من شان المسلمين استخدام السلاح قبل أن يتكون المجتمع الإسلامي ، حيث بقي المسلمون يصبرون على الأذى حتى تكوَّن لهم المجتمع الذي أُذن له بالقتال .

ولم يكن أهل الجاهلية أرحب صدراً ، ولا أقل تطلباً لحجج يمكن أن تدين المسلمين ، في أية مخالفة في استخدام السلاح ، فلم يكن للجاهلين أية حجة في

---

[1] من كتاب محنة الجماعة الإسلامية في باكستان ، ص 32 – 33 ، يراجع تتمة البحث .

ذلك ، وإن عدم اتِّهام المسلمين بذلك ، ليس بسبب أن الجاهليين كانوا لا يرون مثل هذه الحجة أمام الناس ، بل لأن المسلمين لم يسمحوا بأقل تساهل في هذا الموضوع حتى يمكن اتهامهم بذلك .

أما كان الجاهليون هم الذين هبوا وطاروا فرحاً ولوحوا باستنكارهم في حادثة قتل ابن الحضرمي ؟!

فلم تكن قريش أزهد في التشهير بالمسلمين من أبناء هذا العصر لو وجدت فرصة مناسبة ، لذا قالت قريش : (لقد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، وكان ذلك بعد بدر الأولى) .

فأنزل الله في هذا :

(يَسئَلُونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحَرَامَ قِتَالٍ فِيهِ قُل قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفرُ بِهِ وَالمسجِدِ الحَرَامِ وَإِخرَاجُ أَهلِهِ مِنهُ أَكبَرُ عِندَ اللهِ وَالفِتنَةُ أَكبَرُ مِنَ القَتلِ) [البقرة 216/2] .

أي أن الصد عن سبيل الله أكبر عند الله من قتل من قُتِلَ ، والفتنة أكبر من القتل ، قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردُّوه إلى الكفر بعد إيمانه .

« فذلك أكبر عند الله من القتل »[1] .

ثم ألا يستحضر المسلم حال المسلمين الذين كانوا يعذبون في مكة ؟ فحين كان يعذب بلال كما جاء في السيرة :

---

[1] روض الأنف ، الجزء الثاني ، ص 60 .

« وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول وهو في ذلك البلاء : أحدُ أحدُ ، وكان ورقة بن نوفل يُمر به وهو يعذُّب بذلك وهو يقول أحدُ أحدُ ، فيقول أحدُ أحدُ يا بلال ، ثم يقبل على أمية بن خلف ... فيقول أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذته حناناً »[2] .

فلو كان في الإمكان توجيه أي تهمة لهؤلاء ، فما كن أيسر قتلهم ، ولكن لم يكن لهم ذنب إلا أن يقولوا ربنا الله ، يؤمنون بالله ويكفرون بالأصنام ويقولون : أحدُ أحدُ .

توحيد الله والدعوة إليه ليس في حاجة إلى غير هدى الله

في بدئه ونموه واستمراره فهو يحمل رصيده في نفسه

هذا ما يقصُّه الله علينا في سورة الجن : من أن عبد الله لما تجمعوا عليه لبداً لم يكن له من ذنب إلا أنه يدعو ربَّه ، ولم يستعن بشيء إلا بالتبليغ والبيان :

قال تعالى :

(وَأَنَّ المِسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً * وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبدُ اللهِ يَدعُوهُ كَدُوا يَكُونُونَ عَلَيهِ لِبَداً * قُل إِنَّمَا أَدعُوا رَبِي وَلاَ أُشرِكُ بِهِ أَحَداً * قُل إِني لا أَملِكُ لَكُم ضَراًّ وَلاَ رَشَداً * قُل إِني لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلتَحَداً * إِلا بَلاغاً مِن اللهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ

---

[2] روض الأنف ، الجزء الأول ، ص 102 .

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً * حَتَّى إِذا لرَأَوا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعلَمُونَ مَن أَضعَفُ نَصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً) [الجن 72/18-24]

الفيصل في هذا الموضوع

عمل القاضي غير عمل الداعي

التفريق بين من يسعى لإنشاء المجتمع الإسلامي أو إصلاحه ، وبين من يمثل المجتمع الإسلامي المتكون الذي خضع لأمر الله ضروري . ومع وضوح هاتين الحالتين في سيرة الأنبياء ، فإنه لا يزال خفياً بشهادة الأحكام والأعمال التي لا تصدر إلا عمن خفي عليه التمييز بين هاتين الحالتين .

وإن الآيات التي سبق ذكرها وضحت ذلك جيداً ، بحيث أنه لم يعد هناك ما يمكن أن يكون خفياً أو متلبساً .

البلاغ المبين

هو الطريق الوحيد للدعوة إلى الله في كل حين

التهمة التي وجت للأنبياء

فقد لاحظنا أنه لم يكن من تهمة توجه للأنبياء إلا تهمة الدعوة إلى الله وحده ، وعبادته وحده ، دون غيره ، وذلك إبان الدعوة لإنشاء المجتمع الإسلامي في مجتمع جاهلي صرف . هذا واضح في سيرة الأنبياء ، ولكن الذي ربما خفي هو الطريقة التي يجب أن يسلكها من يسعى لإصلاح المجتمع المنحرف . هل يعتبر هذا مجتمعاً إسلامياً فتنفذ فيه الأحكام ؟ أم يعتبر مجتمعاً جاهلياً صرفاً ؟ ومن أي نوع نحن ؟ هل نحن من المنحرفين أم من الجاهلين ؟

المجتمع الجاهلي والمنحرف وطرق علاجهما

يستحسن كثير من الكتاب أن يسميه جاهلياً ومرتداً وليس بحثنا أيهما الواقع ، ولكن الذي يهمنا أنه كيفما كان الأمر فطريق العلاج واحد ، وهو الدعوة إلى الله وبذل النصيحة ، والقيام بمهمة البلاغ المبين فقط . ولقد بيناه في الآيات السابقة حين ذكر عمل الأنبياء لإنشاء المجتمع المسلم .

ونكر هنا بعض الآيات التي تكلف بالبلاغ المبين .

(فَإِن تَوَلَّيتُم فَاعلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المبِينُ) [المائدة 92/5]

(وَّإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيكَ البَلاَغُ) [آل عمران 20/3]

(فَإِن تَوَلَّيتُم فَاعلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المبِينُ) [المائدة 92/5]

(ومَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلا البَلاغُ) [المائدة 99/5]

(فَهَل عَلَى الرُّسُلِ إِلا البَلاغُ المبِينُ) [النحل 35/16]

(ومَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلا البَلاغُ المبِينُ) [العنكبوت 18/29]

والرُّسل قالوا :

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا البَلاغُ المبِينُ) [العنكبوت 18/29]

فكما يحدد الله هنا أن الواجب هو البلاغ المبين ، كذلك يهدد في التقصير في هذا الواجب أو التغيير فيه أو كتمانه :

(وَمَا عَلَينَا إِلا البَلاغُ المبِينُ) [يس 17/36]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِغ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِكَ وَ إِن لَّم تَفعَل فَمَا بَلَّغتَ رِسَالَتَهُ) [المائدة 67/5]

(الذَّين يُبَلِغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخشَونَهُ وَلاَ يَخشَوْنَ أَحَداً إَلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً) [الأحزاب 39/33]

(قُل إِني لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلتَحَداً * إِلا بَلاغاً مِن اللهِ وَرِسَالاتِهِ) [الجن 22/72-23]

خطورة كتمان الحق

(إِنَّ الَّذِينَ يَكتُمُونَ مَا أَنزَلنَا مِنَ البَينَاتِ وَ الهُدَى مِن بَعدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُم اللهُ وَ يَلعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيهِم وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) البقرة 159/2-160

(إِنَّ الَّذِينَ يَكتُمُونَ مَا أَنزَلنَا مِنَ البَينَاتِ وَ الهُدَى مِن بَعدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُم اللهُ وَ يَلعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيهِم وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [البقرة 159/2-160]

(إِنَّ الَّذِينَ يَكتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأكُلُونَ فِي بُطُونِهِم إِلا النَّارَ وَلاَ يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِيهِم وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدَى وَالعَذَابَ بِالمَغفِرَةِ فَمَا أَصبَرَهُم عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِ وَإِنَّ الَّذِينَ اختَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاق بَعِيدٍ) [البقرة 173/2-176]

أما كتمان الحق ، وما ورد فيه من التهديد ، وتفظيع ارتكابه وتشديد العقوبة عليه ، فلم يرد له نظير حتى ولا في تارك الصلاة ، كما رأينا في الآيات الكريمة من سورة البقرة .

وإذا كان بدء الدعوة رصيده في البلاغ المبين فقط ، فكذلك البلاغ المبين رصيد إصلاح المجتمع المنحرف لإعادته إلى الصواب .

بل إن البلاغ وعدم الكتمان رصيد استمرار المجتمع (لاَ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ) [البقرة 256/2] . هذا ما يؤيد موضوع أهمية الدعوة ، حيث يبطل العنف في فكرة تشر الإسلام . أما الحدود والجهاد فليست لنشر الإسلام ، وإنما لرفع الظلم ، لأنه يمكن للكافر أن يبقى في مجتمع إسلامي دون أن يُحارب ولا يُجبَر على الإسلام . بل إن البلاغ هو الذي يحول دون انهيار المجتمع وانحداره ، فهذه أحوال ثلاثة ، الطريق لعلاج كل منها : البلاغ المبين فقط :

1- العمل الذي ينشئ المجتمع الإسلامي ، ويحوله من مجتمع جاهلي هو البلاغ المبين ، كما هو واضح في سيرة الأنبياء ، ولاسيما محمد ﷺ .

2- والعمل الذي يصلح المجتمع المنحرف ، هو البلاغ المبين لما أنزل الله ، كما هو واضح فيما قرره المسلمون من أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها .

3- والعمل الذي يحفظ المجتمع الإسلامي هو البلاغ المبين وعدم كتمان الحق ، ولولا التفريط في هذا الواجب لما انهار المجتمع الإسلامي .

البلاغ المبين هو الذي يقي المجتمع الإسلامي من الانحراف

والمسلمون اليوم إذ عجزوا عن مقاومة الباطل بالبلاغ المبين فقط ، رأوا أن علاجه لا يكون بهذا ، بل بوسائل القوة . وإن هذه الطريقة ليست عقبة في سبيل الإصلاح فقط ، وإنما تعود بالتعويق الشديد على نجاح الحركة الإسلامية .

وإن هذا العمل سيكون أشد وأخطر في الحالة الثالثة أي في وقت الحفاظ على سلامة المجتمع المسلم ، فإن السلطة التنفيذية ستكون بيد من هم آخذون بزمام الحكم ، ولا يبقى للفرد المسلم في ذلك الوقت أيضاً إلا سلاح البلاغ المبين .

وجوب ترويض المسلم نفسه على إحياء البلاغ

والمسلمون اليوم إن لم يروضوا أنفسهم على هذه الطريقة ، طريقة البلاغ ، سباقون في تضرر مستمر من جراء استعمال القوة ووسائل العنف والتربص . وإن وضع المسلم الآن بين أحوال ثلاث إزاء هذا المجتمع الذي هو حركة مستمرة إن لم يكن إلى الأمام فإلى الوراء :

1- إما متربص ليستخدم القوة إذا حانت له الفرصة .

2- وإما ساكت فاقد الأمل من الإصلاح ينتظر قيام الساعة .

3- وإما من لا ينتظر هذا ولا ذاك ، وإنما يصدع بالحق دون أن يخاف في الله لومة لائم ، لأنه يرى من واجبه الأساسي الاستمرار في المعركة التي خاضها دون أن يخرج منها إلا بالنصر أو الشهادة ، وإن مثل هذه المعركة يمكن لها أن تستمر وتنجح مهما طال الزمن ، لأنها لا تحتاج إلى حماية السلاح ، كما أنها لا تحتاج إلى عدد كبير من الناس ، ففرد واحد يمكنه أن يظل في المعركة بإيمانه أمام الدنيا جميعاً . هكذا سنة الله في دعوة الأنبياء إلى الإسلام ، وكذلك شأن من له بهم أُسوة حسنة .

والواجب الآن هو البلاغ المبين أيضاً

أما الإصلاح في زماننا هذا فكذلك الأمر ، ولكن مع هذا لم نُتْرَك من غير أن يوضَّح لنا الطريق ، ولقد نصح الرسول (عليه الصلاة والسلام) فيما سيحدث في المستقبل فكثرت في ذلك أحاديثه التي تدلُّ المسلمين على الواجب عليهم صنعه .

إن دورة الظاهرة (ظاهرة نشأة المجتمع الإسلامي) متكاملة في كل أحواله ليكون واضحاً لمن يريد إعادة الظاهرة فليس شيء منها خفياً .

أحاديث في الموضوع

1- أيها المسلم أنظر إلى هذا الحديث صحيح مسلم :

عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة ، والناس مجتمعون حوله ، فأتيتهم فجلست إليه فقال : كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزل منزلاً ، فمنّا من يُصلح خباءه ، ومنا من ينتضل[1] ، ومنا من هو في جشره[2] ، إذ نادى منادي رسول الله : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال : « إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلَّ أُمته على الخير ما يعلمه ، وينذرهم شر ما يعلمه ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتنة فيفرق بعضها بعضاً ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول : هذه هذه . فمن أحبَّ أن يزحزح

---

[1] ينتضل : يتسابق بالرمي بالسهام .

[2] جشره : درابه .

النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه . ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليعطه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عن الآخر » ، فدنوت منه فقلت له : أنشدك الله أأنت سمعت ذلك من رسول الله ﷺ ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال : سمعته أذناي ووعاه قلبي . فقلت له هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا والله يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَموَالَكُم بَينَكُم بِالبَاطِلِ إِلا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِنكُم وَلاَ تَقتُلُوا أَنفُسَكُم إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُم رَحِيمًا) [النساء 29/4]

قال فسكت ساعة ثم قال : أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله .

2- حديث آخر صحيح مسلم أيضاً :

عن عبادة بن الوليد بن عبادة عن أبيه عن جده قال :

« بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ؛ في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » .

3- حديث آخر :

عن جنادة بن أبي أمية قال : دخلت على عبادة بن الصامت وهو مريض ، فقلنا : حدثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله به ، سمعته من رسول الله ﷺ فقال : دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا ن بايعناه على السمع

والطاعة في منشطنا ومكهرنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله . قال :

« إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان » .

4- وكذلك جاء في صحيح مسلم في باب (وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع ، وترك قتالهم ما صلُّوا) :

عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال :

« ستكون أمراء ، فتعرفون وتنكرون ، فمن عرف بَرئ ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وتابع » . قالوا أفلا نقاتلهم ؟

قال : « لا ما صلُّوا » .

5- وفي سنن أبي داود والترمذي :

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

6- وفي صحيح مسلم :

سمعت حذيفة بن اليمان يقول : كان الناس سألون رسول الله عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ، مخافة أن يدركني . فقلت : يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : « نعم » . فقلت : هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : « نعم وفيه دخن » . قلت : وما دخنه ؟

قال : « يستنُّون بغير سُنَّتي ، ويهدون ويهتدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر » . فقلت : هل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : « نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها » . فقلت : يا رسول الله صفهم لنا . قال : « نعم . قوم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا » . قلت : يا رسول الله فما ترى إن أدركني ذلك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » . فقلت : فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : » فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعضَّ على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » .

وفي رواية لمسلم أيضاً :

« لا يستنُّون بسنتي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس ، قال قلت : كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع » .

ما يؤخذ من الأحاديث

1- حرص رسول الله على دلالة أمته على ما يعلمه من خير ، وإنذارها من شر ما يعلم .

2- حرصه على توضيح عمل من بايع إماماً ثم جاء آخر ينازعه .

3- فهم أصحاب الرسول : الطاعة في طاعة الله والمعصية في معصية الله .

4- عدم منازعة الأمر أهله ، مع عدم ترك قول الحق .

5- السماح بالمنازعة شريطة أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان .

6- النهي عن القتال ، ما وجدت الصلاة .

7- من أعظم الجهاد كلمة العدل عند السلطان الجائر .

8- السمع والطاعة في غير المعصية وإن ضُرب الظهر وأخِذَ المال .

نفهم من جميع ما سبق شيئين خطيرين :

أولهما : وجوب قول الحق دون قيد أو شرط ، وأخذ العهد به ابتداء .

آخرهما : جواز المنازعة مع التحفظ الشديد أي شريطة وجود الكفر البواح الذي يوجد فيه من الله برهان .

والذي أريد أن أقوله هنا : إن المسلمين عكسوا القضية حيث أنهم صاروا يتحفظون في الشيء الأول تحفُّظاً شديداً فنظروا إليه بالخطورة نفسها التي ينبغي أن ينظروا بها إلى الشيء الثاني ، فالأمران عندهم سواء .

كما أن المسلمين ـ إلا من رحم ربك ـ نظروا إلى القسم الثاني نظراً ذاتياً أكثر من أن ينظروا نظراً موضوعياً .

إلا أن النتائج في سنن الله لا تكون حسب النظر الذاتي بل حسب النظر الموضوعي . أعني بهذا أننا نصدر حكمنا في الموضوع على حسب ما في أذهاننا ، لا على حسب ما هو في الواقع . أي دون ا ننظر إلى ما في أذهان المجتمع ، حيث لم يحدث فيه التغيير الذي يجعله يوافقك في حكمك ويظل معك . فلم تؤدِّ بعد واجب الدعوة حتى يتكون لديك رصيد المجتمع المتميز الذي قَبِلَ أن ينفذ به وعليه حكم الله .

تلون موقف المسلم من الكفر البواح

فهذا الكفر البواح هو الذي أريد أن أقف عنده قليلاً ، لأن الآراء فيه تختلف من فرد لآخر ، أو لفرد واحد في حالين ، بل قد يوجد عنده التناقض في لحظة واحدة . ومثال ذلك اعتراف المسلم بأنه لم يعد مسلماً إلا بالهوية ، ثم إذا أردت أن تثبت له هذا تجده قد غير رأيه ، وعاد يقول أمة محمد بخير والحمد لله .

والذي أريد أن ألفت إليه ذهن الناشئ المسلم في هذا الموضوع ، هو أن ينظر إلى الأمر بعمق وتدبر أكثر قليلاً ، فالناشئ المسلم سهل عليه أن يحكم بالكفر فيما بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين مجموعة خاصة ، ولكنه لم يجد القدرة على الجهر بمثل هذا الحكم بالكفر علناً ، وعلى ملأ من الناس ، على رجال حكومة ما في بلد إسلامي ، أو على رجال حكومته بالذات . أنا لا أريد هنا الإثبات أو النفي ، ولكن الذي أريد أن أبينه هنا كيف أن موقف المسلم يتلون ويتحول من حال إلى حال .

فإذا كان له من الله برهان ، فلماذا لا يعلنه ويصرح به ويلح عليه ؟ ولماذا يريد أن يتخفى ؟ لم لا يتبنى رأيه بوضوح أمام جميع الناس ؟ ولم لا يتبنى أعظم الجهاد ويقول كلمة الحق حتى يقوم بواجب التبليغ ؟

ثم ينبغي أن نعلم ؛ أن أتي حاكم مسلم ، في أي بلد إسلامي ، في واقع الأمر لا يزال يتمتع بحقوق الفرد المسلم بحكم هويته عند عامة المسلمين . وهذا يمكن ملاحظته في ظاهرتين واضحتين :

الظاهرة الأولى :

عدم إعلان الكفر في بلاد الإسلام :

إن أي حاكم مسلم في أي بلد إسلامي ، لم يجرؤ على أن يعلن كفره على الناس بوضوح في هذا العالم الذي نعيش فيه ، لا لأن جميع الحكام عندهم القناعة الكافية ، وإنما لأنه يعلم أن هذا الإعلان مخالف للعرف العام الذي يصعب الخروج عليه ، وقد يكون هذا العرق قد فقد ما يعتمد عليه أو ازداد قوة ولكن هذا العرف لا يزال يقوم بمفعوله .

الظاهرة الثانية :

عدم إعلان الإسلام في بلاد الكفر :

ولكن أريد أن أقول أيضاً إن هناك عرفاً آخر لم يعد محتفظاً بشيء من الوضوح مهما كان قليلاً .

ففي الوقت الذي لم يستطع حاكم مسلم في هذا العصر أن يعلن كفره بالإسلام ، لا يوجد أي حاكم استطاع أن يقابل أمم العالم المعاصر بوجهه الإسلامي الصريح . وهذا أيضاً معتمد على عرف مُسَلَّمٍ به لا يخرج عنه حاكم واحد .

إذن لعلك أيها المسلم تمكنت من أن تنظر إلى الموضوع نظراً أعمق قليلاً ففهمت معنى (كما تكونوا يولَّى عليكم) .

فلا تظن أن هؤلاء الحكام غي محكومين بمفاهيم المسلمين ومقرراتهم ؛ فهم ملتزمون التزاماً تاماً بها ، لا يزيدون عليها ولا ينقصون ، فنقول إن هذا مسلم ومتقيد بالإسلام تقيداً تاماً ، ولكن لا على حسب ما أنزل الله ، بل على

حسب ما في أذهان عامة الناس ، أي الرأي العام للوجود في الأمة ، وهذا الوضع هو الذي عطل معنى الحديث .

فهؤلاء الحكام لم يكفروا كفراً بواحاً على حسب الرأي العام ، لأن الكفر البواح الذي أصبح متعارفاً عليه عند الرأي العام هو إنكار الإسلام والتصريح بعدم وجود الله .

ومن هنا يتبين لنا أن الخصم الحقيقي للإسلام هو مفهوم المسلمين عن الإسلام .

ففي الوقت الذي يعود فيه معنى الكفر البواح عند المسلمين ، إلى الحدود التي وضعها الله بين الإيمان والكفر ، في مثل قوله :

(فَلاَ وَرَبِكَ لاَ يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحَكِمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَينَهُمْ) [النساء 64/4]

نكون قد أحدثنا عرفاً جديداً لا يستطيع أن يخرج عليه أعتاهم . فهم يخافون أن يعرفوا لأنهم كافرون كفراً بواحاً ، أشد من خوفك من وسائل القوة التي في أيديهم ، والتي تتمناها أن تصير في يدك ، فهل عرفت ما عندك من وسائل ، ولا تعرف من قيمة استعمالها شيئاً ، فهي في موضع العطالة ، كما كل شيء في العالم الإسلامي في موضع العطالة .

ثم أتظن أنك إذا صار لك الحكم تستطيع أن تفيد منه ، وأنت أعجز الناس من الإفادة من اعظم قوة عندك ؟

إن أي حاكم مسلم ، مهما كان وضعه ، فهو يحوز من الثقة ما لا يحوزه أي حاكم غير مسلم ، مهما كان عنده من الكفاءة الفنية والنزاهة الخلقية .

فهذه الظواهر بديهيات في الأعماق ، ووقائع ضخمة . فلابد من التأثير على هذه الجبال من الثلوج ، بحرارة كفاح المؤمن ، وإعلانه لأفضل الجهاد وأعظمه ألا وهو كلمة العدل .

أما أن ينسج الناشئ المسلم حول نفسه بيتاً من نظراته الخاصة المحدودة ، بحيث يخالف سنة الله والواقع الأرضي الذي يعيش فيه . فكل هذا ينبغي أن يراجع فيه نفسه .

ليس عيباً لن يخطئ الإنسان ولكن العيب هو ألا يعرف كيف يكشف غلطه .

فإذا أراد وسأل أين الخطأ ؟

فقد قال الله مجيباً على ذلك :

(هُو مِنْ عِنْدِ أنْفُسِكُمْ ..) [آل عمران 165/3] .

منشأ هذين الموقفين :

ومنشأ هذين الموقفين من عدم إدراك حقيقة الإسلام ، أو إدراكها مشوهة ، وأن المبدأ الإسلامي لم يعد مثلاً أعلى ، بل صار في الموضوع إدانة ضمنية للمبدأ ، بتخلي المسلم عنه وتبنيه لغيره .

تهمة الإرهابية

وأوضاع المسلمين إزاءها

العاملون للإسلام ، تعرضوا للمحن القاسية ، وألصقت بهم التهم المختلفة ، ومن أخطرها تهمة الإرهابية التي يلوح بها في مناسبة وغير مناسبة .

وهـؤلاء الـذين يقمعـون الحركـات الإسـلامية ، مـن المنتسـبين إلى الإسـلام ووراءهـم شياطين الأنـس ، الـذين يعرضـون هـذا الشـيء الـذي حـدث إلى الـرأي العـام العـالمي ، بالصورة الـتي يريـدونها هـم ، مع التفسيرات الـتي تناسبهم لإبقـاء المسلمين في عقدهم .

فالعـاملون للإسـلام ينبغـي أن يخرجـوا مـن هـذا الوضـع المحزن ليواجهـوا هـذه الأحداث الخطيرة بتبصر .

ينبغـي أن يكونـوا واضـحين وصـريحين بأقـوالهم وأفعـالهم ، بحيـث يثبتـون للنـاس جميعاً أنهم لا يتبنون أعمال العنف ، وبحيث يقومون بواجب التبليغ الذي فرضه الله ، ليقيم على أساسه هذا الدين الحنيف .

والدعاة بالنسبة إلى تهمة الإرهابية ثلاثة أصناف :

الصنف الأول :

من يرى مثل هذا العمل

1- قسم يرى لنفسه أنه لا مـانع أن يقـوم بأعمـال العنـف أو أنـه يراهـا واجبـة عليه .

وهذا الصنف من الناس ، يمكن قمعه بكل قوة وشدة ، وبكـل تبجح وادعـاء للإسلام ، واتِّهامهم بأنهم خوارج وإرهـابيون ، بـل وسيجدون العـون مـن المسلمين التقليديين ، وتكون المعركة بذلك ضارية ومؤذية ومؤلمة حقاً .

الصنف الثاني :

من لا يرى العنف ولكن يمكن أن يلصق به ذلك

2- وصنف آخر من المسلمين لا يرون القيام بهذه الأعمال ، أو أنهم على الأقل لا يرونها في الوضع الراهن ، ولكن ليس لديهم الجرأة أن يعلنوا بأنهم يتبنون العمل السلمي ، والدعوة إلى الله دون استخدام القوة .

وهذا الصنف من الناس ، وإن كان لا يقوم بشيء من أعمال العنف ، إلا أنه لم يهيئ الجو الطاهر النقي ، الذي يبعد التهمة لمن يريد أن يبطش به أراد الاتهام ، فإن مثل هذه الأمور ينبغي أن يعمل حسابها ، ويتأكد من الصلات بالعاملين للإسلام ، وأنهم ليسوا معرضين لعدوى أمراض العنف . لأن طريقة الصداقة على البساطة في مثل تلك الأجواء ، الحاملة لقابلية العدوى ، تجعل الأمور بعضها ملتبساً ببعض . فلا يصعب على الذي يريد الاتهام ، أن يلصق التهم بأمثال هؤلاء الطيبين ، أصحاب النيات السليمة ، الذين لا يدركون وجوب تطهير جو المعركة من مثل هذه الأشراك الخداعية ، التي يمكن أن يعلق بها الإنسان ويصاب من جرائها بالأضرار الجسيمة .

الصنف الثالث :

من لا يرى العنف ولا يمكن أن تلتصق به التهم

3- هذا الصنف من الدعاة هم الذين لا يحملون أفكار الصنف الأول ، ولا هم في غموض الصنف الثاني وبساطتهم .

وإنما هم الذين عرفوا هذه الأشياء ، وكونوا لأنفسهم تاريخاً ، بحيث إن مثل هذه التهم لا يمكن أن تلتصق بهم ، بل ترتد على من يحاول الاتهام بها ، كما كان جو المسلمين يوم كانوا ينشئون المجتمع الإسلامي صافياً نقياً ، بحيث لا

يستطيع أحد أن يتهمهم بمثل هذه التهم وقد سبق بحث شيء من هذا فيما مضى .

ولكن تكوين مثل هذا التراث ، ومثل هذا التاريخ ، ومثل هذا الجو النقي صار صعباً ، وبحاجة إلى أحداث ومُثُل ، تُثبت للناس النزاهة والشجاعة في إعلان المبدأ ، وتحمل التبعات .

ومع ذلك ، لابد من نشر هذه الأفكار بالبيان القولي والعملي ، للدخول إلى الصراع مع الباطل من جديد .

وقد يظن أن تبني مثل هذه الفكرة إنما يتم لأجل التَّستُّر بها ، وقد يُرتاب فيمن يتبناها ، وقد لا يصدق ، لثقل وطأة العوامل الفكرية المسيطرة على الناس على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم .

ولا أرى في العالم الإسلامي شيئاً واضحاً حول هذا الموضوع ، وإن كان هناك من جرؤا أن يتكلم بصراحة في الموضوع فهو الأستاذ (أبو الأعلى المودودي) ، فهو أجرأ من رأيت ، وأشجع رجل استطاع أن يظهر رأيه بوضوح ، من غير أن يشعر بمركب النقص الذي يشعر به الآخرون ، حيث يظنون أنهم يفرطون في دينهم إن قبلوا مثل هذا المبدأ ، أو دعوا المسلمين إليه .

ولا يجوز أن نعتبر بعض الدعوات مهما اتسع نطاقها ، أنها من هذا الصنف الأخير ، وقد لا تصدق التهمة عليهم ، ولكن أمثال هؤلاء لعدم فعاليتهم في الدعوة ، لا يشعر الآخرون بضرورة توجيه مثل هذه التهم إليهم للقضاء عليهم .

وخلاصة أفكار هذا الفصل :

أن الناس بالنسبة إلى أية تهمة ليسوا سواء ، فمنهم من هم جديرون بالتهمة بشهادة أحوالهم ، ومنهم من لا محل لأن توجه إليهم التهمة .

والمسلم الداعي ينبغي أن لا يكون في غفلة من وزن هذه الأمور بموازينها ، وأن لا يترك في ايدي الآخرين حجة للاتهام غير تهمة إيمانه بالله ، وكفره بالطاغوت . والمسلمون الآن بين :

1- متربص مداهن لكل وضع ، يرى الحكمة وفصل الخطاب وإنقاذ ما يمكن إنقاذه في هذه الطريقة .

3- وصنف يريد أن يعتز بالحق لا يتربص ولا يداهن ، ولكن هذا الصنف لم يثبت بعد على قدميه .

4- ويمكن أن نقول إن هناك صنفاً متردداً ، لم يتبين له شيء ، فهو حائر قلق مضطرب ، لم يستطع تفسير الأحداث المؤلمة التي أخرجته من ميدان العمل ، كما أنه لم يطمئن إلى أن يسكن وينسحب من الميدان ، لذا فهو في صراع . فإن لم يسارع المشرفون على التوجيه في العالم الإسلامي ، ليخطوا له طريقاً يخرجه من قلقه ، ويدله على عمل يشعر به أنه يسيطر فيه على قضيته ويشعر بجدوى عمله ، كان لابد للحيرة الطويلة أن تترك آثاراً سيئة لا تكف عن إبراز مضاعفاتها بأشكال مختلفة .

شبهات حول الموضوع

الشبهة الأولى

شبهة تعطيل الجهاد

إن أولى الشبهات وأعظمها وأخطرها على هذا الأسلوب من العمل الإسلامي ، هي شبهة التعطيل للجهاد الإسلامي .

فهل صحيح أن هذه الطريقة معطلة للجهاد ؟ هذا ما نريد أن نبحثه هنا . إذ إن هذا البحث مبني على مسلَّمات خاطئة ، وتراث ثقافي منحرف منذ قرون . وقد سبق أن أشرنا إلى التمييز بين من يدعو إلى إنشاء المجتمع الإسلامي ، أو إصلاحه ، أو الحيلولة دون انهياره ، وبين المجتمع الذي تميز وينفذ أحكام الله ، ويعامل المجتمعات الأخرى على حسب أوامر الله في الجهاد والقتال والاستنفار الدائم .

وذكرنا أن اجتماع بعض الأفراد ، ليصدروا أحكام القتل ضمن مجتمع لم يتميز ، ليس هو الجهاد ، كما أن تنفيذ حدٍّ من حدود الله ليس لمثل هؤلاء ، ونضيف : كم نكون خاذلين لحقيقة الحق ولحقيقة الإسلام ، في الوقت الذي نريد أن ندعمه ، إذا ظننا أن الإسلام لا يمكن أن يقبله الناس إلا إذا أرغموا على ذلك ، وكأن هذا العقل الذي أودعه الله في الإنسان لا يمكن أن يهاجم بالبرهان ، فنترك بيان البرهان والكسب الذي يحصله لنا إلى شيء يديننا ويدين فكرتنا .

ولست أيضاً من السذاجة ، حيث أقول : إن الإسلام لا يحتاج إلى أن يُقِرَّ الحق بالقوة وينفذ العقوبة على الظالم ، وإنما يكتفي بالمواعظ الخفيفة اللطيفة التي لا تصدم باطلاً ولا تسفه منكراً . فرق كبير بين الاستسلام لقوى البغي والتربص بها سراً ، وبين الإصرار على إنكارها والكفر بها ، وإن كان لا يقاومها بالسلاح

حتى يتكون المجتمع الذي يعتز بدينه ويقدر على إعلان أن (ربّه الله) ، وبوضوح وجلاء ، بحيث يؤمن بالحق ويكفر بالباطل علناً ، وأمام الدنيا بأسرها ، فإن مثل هذا العمل هو الذي يؤدي إلى تميز المجتمع الذي ينفد أمر الله بالقتال .

فهؤلاء الذين كانت لهم الجرأة الكافية لإعلان عقيدتهم ، وما يؤمنون به وما يكفرون به بوضوح ، بحيث يبلغون به درجة البلاغ المبين ، الذي تَلْزم الحجة به ، فيقع العدوان الباغي عليهم ، ولا يكون لهم ذنب إلا أنهم يقولون ربنا الله ، فهؤلاء الذين من هذا الشكل ، والذين يقع عليهم العدوان الصارخ ، هم الذين ينعطف إليهم كل قلب فيه حب للحق والعدل . فبهذا الكفاح يجتمع الأفراد الذين يسلم المجتمع بأنهم جديرون بذلك .

فينبغي الحصول على هؤلاء الأفراد ، الذين يستطيعون أن يحكموا أنفسهم بأمر الله قبل أن يحكموا غيرهم ، وعند ذلك يخول الله لهم تطبيق حكم الله على غيرهم .

وليطمئن المسلم ، فإن الجهاد ماضٍ ومستمر حتى تقوم الساعة ، ولكن على هذا المجتمع الذي استقلَّ وتميز بإيمانه الواضح وعقيدته الصلبة . والوصول إلى استقلال المجتمع الإسلامي لا يكون بالقتال واستعمال القوة[1] ، وإنما بالدعوة والإقناع كما حدث لجميع الأنبياء ، ولكن المسلمين حيث أصيبوا به غيرهم من عدم الثقة بالإنسان ، فإنهم يخافون أن لا تجدي الدعوة ، وهم بهذا ينزلون بأفضل

---

[1] المقصود من استعمال لفظ القتال : هو استخدام السلاح من قبل أفراد يعيشون في مجتمع لم يخضع لأحكام الإسلام ولم يُكل إليهم من قبله استخدام القوة .

الجهاد الذي يأتي بأفضل الكسب ، إلى أدنى الدرجات ، فهم يبخسون أهمية قول الحق ، ولهم العذر لأنهم لم يروا كيف يكون أفضل الجهاد و (كلمة العدل)
.

وهذا الرصيد الذي لا ينفذ ، والقابل للاستعمال في كل الظروف والأحوال ، والذي لا يحتاج إلى مجتمع متميز ، وهو أفضل الجهاد ، والجهاد الأفضل الذي يكفي نفسه ولا يغني عنه غيره .

وإن زهوق الباطل يكون بمجرد مجيء الحق ، فلا بقاء للباطل إلا في غيبة الحق :

(وَقُل جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) [الإسراء 81/17]

(بَل نَقذِفُ بِالحَقِ عَلَى البَاطِلِ فَيَدمَغُهُ فَإِذَا هُو زَاهِقٌ وَلَكُم الوَيلُ مِمَّا تَصِفُونَ) [الأنبياء 18/21]

الشبهة الثانية

عدم جدوى الأخلاق مع من لا يلتزمها

قد يقول قائل بشيء من عدم المبالاة ، إن هذه الطريقة جيدة ، ولكن لا جدوى لهذه الأخلاق السامية ، إذا كلن الذين تعاملهم لا يلتزمونها .

الحق أن مثل هذا الرأي صادر عن حكم مسبق ونظرية تشاؤمية عن الإنسان ، وبخس لقيمة الحق والأخلاق كسلاح في كفاح البشر ، ولئن كان أحد من الناس يقول مثل هذا القول فما ينبغي أن يقول هذا أحد من المسلمين الذين يقول كتابهم :

(وَلاَ تَستَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِئَةُ) [فصلت 34/41] .

والانتصار على الضمير هو الذي يشير إليه القرآن بأنه طريقة لتحويل العدو إلى صديق حميم :

(ادفَع بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ فَإِذا الَّذِي بَينَكَ وبَينَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ) [فصلت 34/41] .

– إن هذه الطريقة شاقة على النفس ومُرَّة لذا :

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ) [فصلت 35/41] .

فلو كان مثل هذا الاعتراض صحيحاً لما أمكن أن يفرق بين المعتدين والمظلومين ، ولفقدنا الثقة بالعقل الإنساني في التمييز بين المصلح والمبطل .

ومهما يكن الأمر ، فإن تفادي مثل هذا الأمر لا يكون بالميل إلى تقليد الباطل في طريقته ولو بجزء يسير ، وإنما بالتزام مبادئ الأخلاق في كل الظروف وهذا ما يمتاز به الإسلام عن الانتهازية التي لا تثبت على مبدأ .

الشبهة الثالثة

شبهة أن قول الحق من غير قوة لا أثر له

قد يقول قائل : إنك إذا قلت الحق مجرداً ، من غير أن تكون هناك قوة تدعمك ، فإنك تُترك ولا ينتبه إليك أحد ، كذلك لا يبالي بك أحد ، فتظل تنعق ، والناس لا يستمعون إلا لمن يلوح لهم بالقوة ويسوقهم بالعصا ، فإذن لا فائدة من اتخاذ طريقة الدعوة إلى الله بالبلاغ فقط ، ولا بد لك من قوة .

إذا نظرنا إلى هذا الرأي هل نجده صواباً ، وهل تأتي النتائج حسب توقعاته ؟ هذا هو الذي يحتاج إلى بحث :

إن عرض الحق بوضوح وجلاء كما أمر الله الرسل ، من غير التماس وتلبس وتغطية ، يزلزل الأركان ويهز الكيان ، فإن كنت في شك من ذلك فاستمع إلى قوله تعالى ، حين يتحدث عن إبراهيم عليه السلام ، ويأمرنا لأن نقتدي به في بيان الحق وتحديد الموقف .

قال تعالى :

(قَد كَانَت لَكُم أُسوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذ قَالُوا لِقَومِهِم إِنَّا بُرَآءُ مِنكُم وَمِمَّا تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرنَا بِكُم وَبَدَا بَينَنَا وَبَينَكُمُ العَدَاوَةُ وَ البَغضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤمِنُوا بِاللهِ وَحدَهُ ...) [الممتحنة 30/60] .

مثل هذه المنابذة في بيان الحق من أعظم المميزات .

وإلا فإن الرسول ﷺ لما وقف في قومه يدعوهم إلى الحق فماذا حدث ؟ اسمع إلى قول الله سبحانه وتعالى وهو يصف هذا الموقف :

(وَأَنَّ المَسَـجِدَ للهِ فَلاَ تَدعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً * وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبدُ اللهِ يَدعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيهِ لِبَداً * قُل إِنَّمَا أَدعُوا رَبِي وَلاَ أُشرِكُ بِهِ أَحَداً * قُل إِني لا أَملِكُ لَكُم ضَراًّ وَلاَ رَشَداً * قُل إِني لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلتَحَداً * إِلا بَلاغاً مِن اللهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) [الجن 72/19-23] .

وهذه الفكرة المسيطرة على كثير من المسلمين من عبادة القوة ، وعدم اعتبار الحجة والبلاغ المبين أمراً هاماً ، بل اعتبروا ذلك لا جدوى منه ولا غناء فيه ، بل زهدوا فيه عملياً تطبيقاً لأفكارهم النظرية . إنما سيطرت عليهم نتيجة اعتيادهم على رؤية صور مشوهة للدعوة ، حيث خدعتهم هذه الصور المشوهة ، ودفعتهم إلى إصدار مثل هذا الحكم ، مع أن هذا الحكم يحمل خطأ من جانبين :

أولاً : ظُنَّ أن بعض المداهنات ـ التي لا يبالي بها أهل الباطل ـ من الدعوة الحقيقية .

ثانياً : ظُنَّ أن الدعوة لا تزلزل المجتمع ولا تقلب الأوضاع .

فهذه نظرات خطيرة يتبعها المسلم في إدراك الحقائق .

إن هذه النظريات الشائعة عند المسلمين ، الذين استذلوا ولم يعرفوا إلا القوة سائقاً للناس ، فلم يعرفوا كيف يتمكن هذا المسلم من أن يتمرد على الباطل المسلح وهو فرد أعزل .

وقد أدرك هذا ورقة بن نوفل حين قال للرسول ﷺ بعد أن سمع منه : « ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عُوديَ » . والرسول نفسه استغرب أن يكون مثل هذا سبباً للعداوة والإخراج ، فقال متعجباً من قول ورقة :

« أوَمُخْرِجيَّ هم ؟ » .

وانتشار مثل هذه الأفكار وهذه الشبهات في المسلمين هو الذي جعل الأستاذ المودودي يقول :

« وهؤلاء المؤذنون اليوم يؤذنون من مآذنهم خمس مرات في كل يوم وليلة ، وينادون بأعلى أصواتهم : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت ترى الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم يسمعون هذا النداء ولا تقض مضاجعهم لسماعه ، وذلك أن الداعي لا يعرف إلام يدعو الناس ، ولا الناس يتفطنون إلى ما تتضمنه الكلمة بين جنبيها من دعوة سامية وغاية جليلة ، ولكن لو علمت الدنيا ما يشتمل عليه هذا النداء من غاية بعيدة المدى ، وأن المنادي ينادي بعزم وإصرار لانقلبت الأرض غير الأرض ، ولتنكرت الوجوه ، وما يدريك كيف تستقبل الدنيا التي رضعت بلبان الجاهلية وترعرعت في مهدها هذا النداء ، إذا عرفت أن المنادي يقول : أن لا ملك لي إلا الله ، ولا حاكم إلا الله ، ولا أخضع لحكومة ولا اعترف بدستور ولا أنقاد لقانون ، ولا سلطان علي لمحكمة من المحاكم الدنيوية ، ولا أطيع أمراً غير أمره ، ولا أتقيد بشيء من العادات والتقاليد الجاهلية المتوارثة ، ولا أسلم شيئاً من الامتيازات الخاصة ، ولا أدين لسيادة أو قداسة ، ولا أستخذي لسلطة من السلطات المستكبرة في الأرض ، المتمردة على الحق ، وإنما أنا مؤمن بالله ، مسلم له ، كافر بالطواغيت والآلهة الكاذبة من دونه ، فما يدريك هل تسمع الدنيا وأهلها النداء فتسكت عليه ؟ لا ، لا .

والله إنها تنقلب عليك عدواً ، وتتنكر وجوه أهلها لك ويعلنون الحرب عليك بمجرد سماع هذه الكلمة ، سواء عليك أردت القتال أم لم ترد فإنهم يحاربونك لا محالة ويترقبون لك بالمرصاد ، وما أم يسمعوا المؤذن بهذا النداء الحقيقي إلا وترى الأرض تبدلت غير الأرض وتجد الناس حولك كأنهم تحولوا عقارب وثعابين تريد

أن تلدغك ، أو انقلبوا وحوشاً تبتغي أن تنشب مخالبها في بدنك وتفترسك افتراساً »[1] .

الشبهة الرابعة

شبهة عدم التمكن من قول الحق من غير قوة

قد يقول قائل : إنك إن التزمت هذه الطريقة ودعوت وبيَّنت الحق ، من غير أن يكون معك قوة تدعمك ، فإنك تؤخذ من غير أن يعرف عنك أحد شيئاً ، وتتهم بتهم باطلة ، ويرغمونك على الإقرار بها ، ويحكمونك بالموت ، وتكون قد ذهبت من غير أن تفيد شيئاً ، وربما يؤكد أن مثل هذا قد حدث .

وهذه الشبهة هي نقيض الشبهة السابقة . وإذا علمت أن مقرر هذه الشبهة ومقرر الشبهة التي قبلها من الشباب الذين يهتمون بالدعوة الإسلامية ، فإنك تعرف مقدار التشويش الذي في أذهان هؤلاء الشباب الطيبين ، الذين لا يدركون من الواقع إلا أحكاماً غير حقيقية ، أو أنها سطحية ، إن لم أقل إنها وهمية ، وإنها صادرة عن ملابسات الجو الفكري المختلط الذي نعيش فيه .

قد قررنا في ردِّ الشبهات الماضية أن قول الحق : يحول الناس إلى حيَّات وعقارب تريد أن تبتلعك وإن لم ترد أي صدام . إذن فلسنا بحاجة إلى تقرير هذا الصدام الذي يقرره صاحب الشبهة ، وإنما الذي نريد أن نقوله هنا : هو أن التوقع ناشئ من الحياة في جو فكري ملوث فقدت فيه الموازين والقواعد التي يعتمد عليها الفكر في مقرراتها .

---

[1] نظرية الإسلام وهديه ، للأستاذ أبو الأعلى المودودي ، ص 107 .

لهذا لا يخطر في بالنا أن نتساءل : لم كان الأمر هكذا ؟ فإذا تذكرنا ما سبق أن أوردناه من الأحوال الثلاثة للعاملين في إمكانية توجيه مثل هذه التهم عليهم ،نعلم كم نحن مقصرون في عدم تهيئة الجو النقي النزيه ، وترك الأمر غامضاً نمكن فيه من يريد أن يتهمنا من أن يقوم بما يريد بسهولة ، هل استطعنا أن ننفي عن أنفسنا قولاً وعملاً أننا لا نتبنى مثل هذا العمل .

الشبهة الخامسة

شبهة إماتة روح الجهاد بهذه الطريقة

وهي قول بعضهم : إن مثل هذه الدعوة تُميت البقية الباقية من شوق المسلمين إلى الجهاد والكفاح .

فالآن أقل ما يقال : إنهم يشعرون بالتقصير في عدم جهادهم .

أما أن تقنعهم أنهم ليس عليهم أن يجاهدوا حتى يتميز المجتمع المسلم ، فهذا قضاء على القلق الذي يحمله المسلمون من الشعور بالتقصير ، حتى لا يبقى لديهم إحساس بالتقصير بالواجب . لا أريد أن أناقش تقسيم الجهاد هنا إلى أنواع ، ولكن ألا يمكن أن يقال أيضاً : إن التهمة نفسها يمكن أن ترتد إلى موردها حين نقول له : إنك تكلف المسلم شيئاً لا يستطيع القيام به . فالتكليف بما لا يستطيع حض بأسلوب آخر على عدم السعي للتنفيذ ، ففي النهاية لا يبقى إلا أن يشعر بأنه مكلف بما لا يستطاع ، وهنا يفقد حرارة الشوق إلى الجهاد ، الذي يريد أن يعرف موضعه ، فلا ينظر إليه إلا بشيء من

التقديس الظاهري الغيبي ، الذي لا يجد له أثراً واقعياً . إن هذا الفهم للجهاد بهذا الشكل يقفل باب الجهاد الذي يفتح له ، وهو قول الحق ، والنجاح فيه أقرب ، ونتائجه أسلم وأعظم بركة وأبقى على مرِّ الزمن .

إذ كثيرون أولئك الذين يستطيعون أن يثبتوا على قول الحق حتى يموتوا في سبيله ويكونوا قرباناً له ؟ أرى أنهم قلة ، مع أن نتائجه أعظم في الثمرات وأقل في المخاطر ، فهذا النظر الذي يقدر الأمور على غير وجهها ، هو الذي يؤدي إلى الشعور بأن قول الحق فقط يقعُد بالمسلم عن الجهاد ، ولا يدرك انه لا يمكن دخول باب الجهاد حتى بالقتال إلا من هذا الباب ، باب قول الحق ، حتى يتكون المجتمع المتميز .

الشبهة السادسة

شبهة أن الدافع إلى هذه الطريقة هو الخوف

وهناك مما يعترض به على هذه الطريقة ، قولهم ألا يمكن أن يكون الدافع إلى هذا هو العجز والضعف ؟ وأن من يدعو إليه إنما يريد أن يستر ضعفه ، بتنبيه لهذه الطريقة .

قد يقال هذا ، وأنا سمعته .

إلا أن هذه الشبهة لا تدل إلا على عدم فهم هذه الطريقة ، وعلى عدم وضوحها لهم ، ولقد قال لي أحدهم بعد أن تبين أهمية هذه الطريقة وفعاليتها ، قال : كنت أظن أن هذه الدعوة إنما هي انسحاب أو اتجاه سلبي ، وإنني ما

كنت ألاحظ فيها إيجابية ، في حين أن هذه الطريقة ليست انسحاباً بل دخولاً في الصراع ، وأنها إيجابية فعَّالة .

وكلما أدرك الإنسان معنى الإنسان ، ومعنى الحق ، يتبين له عظم هذه الطريقة وجدواها وفعاليتها .

الشبهة السابعة

شبهة التَّنَصُّل من المسؤولية

وهذه الشبهة قريبة من السابقة ، وهي قولهم : إن هذه الطريقة ناشئة من عدم الجرأة والشجاعة ، لأن أصحابها لا يريدون أن يتحملوا المسؤولية والتبعية ، ولا يريدون أن يتعرضوا للأذى ، ويمكن الرد على هذه الشبهة بطريقتين :

الأولى : بالإيجاب وهي نعم . إننا نتفادى الأذى ، ولا نريد أن نتعرض للخطر ، من أجل أعمال يمكن أن تلتبس بالعدوان .

فإني جبان في هذا الموضع ، وأنا أخاف وأعترف بأني أخاف ، وضميري لا يطمئن كما سبق أن قررت ، أن أتعرض للأذى من اجل مثل تلك التهم .

والثانية : أن من يعمل على هذه الطريقة ، ليس معناه أنه لا يجد الصعوبات والمشقات ، حتى نتهمه بأنه جبان ، ولكن مع ذلك فإن ما يجده من المشقات والصعوبات ، أقل بكثير وأريح للضمير من المشقات التي تنتج عن دوافع استخدام وسائل العنف .

الشبهة الثامنة

شبهة اغتيال كعب بن الشرف

ومما يذكر في جواز القيام بأعمال الاغتيال ؛ قصة كعب بن الأشرف ، وأن الرسول ﷺ كان راضياً عن هذا العمل .

أظن أن الذي فهم ما كتبناه هنا في هذا الكتاب ، يكفيه أن يعلم كيف أن العمل ليس مثل ذاك .

فالرسول ﷺ حين رضي عن هذا ، كان المجتمع الإسلامي قد تميز وملك زمام نفسه . وفي الوقت الذي تكون فيه الحرب معلنة من قبل المجتمع الإسلامي ، لا يقال إن مثل ذاك . كما لا يقال عن الفدائيين الذين يتسللون إلى معسكرات العدو أثناء الحرب ، ويقومون بأعمال تخريب بعد أن تكون الحرب معلنة والمجتمع متميزاً .

بخلاف المجتمع الذي لم يتميز ، فليس له أن يفعل ذلك ، حتى في اشد المحن ، كما سبق أن بينا نهي الرسول ﷺ للصحابة عن أن يحدثوا شيئاً من ذلك .

الشبهة التاسعة

شبهة إرعاب المسلمين

قولهم : إن هذه الطريقة تلقي الرعب في قلوب الناس وتجعلهم يبتعدون عن دعاتهم ولا يتقربون إليهم . هذه الشبهة تتضمن الاهتمام بالناس وعدم تنفيرهم ، أو عمل حساب موقف عامة الأمة من الإسلام .

أما الاهتمام بالناس والبحث في العوامل الحقيقية التي تجعلهم خارج الصراع في النزاع ، فهذا الاهتمام شيء ضروري وعمل حسابهم أمر لا بد منه ، فإن مشكلة المشكلات أن عامة المسلمين ، بعيدون عن أن يكونوا مع الإسلام

بصورة أكثر نفعاً ، وبعمل أكثر جدوى ، فلا حرج من عمل حسابهم والتفكير في الطريقة المجدية لتحريكهم ، لن المرض الحقيقي في جهل عامة الأمة ، وعجزهم الذي يعكس حيرة المشرفين على توجيههم وتعليمهم ، وإرشادهم إلى الطريقة التي يمكن بها أن يثبتوا ذواتهم .

ويمكن أن نقول : ليس لنا عدو اخطر من هذا التبلُّد الفكري وهذه الثقافة الفكرية ، التي تنشئ الفرد في الأمة بهذه العطالة .

فبلا بد من التفكير في إخراج المسلم عن عطالته ، ومن الشعور بعدم جدواه وجدوى عمله .

ويمكن أن يقال : إن الذي ضاعف من ثقل وطأة المحن التي نزلت بالدعاة ، أنهم من غير مدد من عامة الأمة ، فكانوا في الصراع منفردين ، غير مدعمين إلا بشيء من العاطفة العاطلة الميتة ، وفي كثير من الأحيان ، يصدق عليهم قول الآخر : قلوبهم معك وسيوفهم عليك .

ولا نقول أيضاً : إننا مخلصون لله ولا نبالي ، فحسبنا هذا الإخلاص في العمل ، فإن الإخلاص في العمل على سنة الله في إنجاح الأمور لا تعارض بينهما ، بل الإخلاص في العمل وفق سنة الله : هذا الاقتران هو الذي يأتي بأعظم الثمرات .

ومما يدل على اختلاط الأمور والتباسها التباساً شديداً ، أن تكون مثل هذه الشبهة واردة على مثل هذه الطريقة ، بينما نرى الأمر بالعكس ، فنحن نرى أن محور الموضوع كله ، يدور حول هذا ، أي أن سبب خوف الناس وانفصالهم عن

الدعوة إلى الإسلام هو ما اقترن بالدعوة من أعمال العنف التي تجعل المحنة قاسية غير مجدية . ومحور البحث فيما كتبناه كله هو ما نعتقده :

من أن المسلم يستطيع أن يثبت على إسلامه ، ويستطيع أن يصبر وأن يدخل في العمل بشجاعة ، إذا كانت التهمة الموجهة إليه أنه مسلم ، أكثر مما ستطيع أن يصبر إذا كانت تهمته أنه يريد أن يعمل انقلاباً .

ولا يكفي أن يكون المسلم ظانّاً أنه إنما تنزل به المحن لأنه مسلم ، لأن الناس لا يرون هذا فكما أنت تنظر إلى الموضوع كذلك ينظر الذي يعارضك إلى الجانب الآخر ، ويريد أن يجردك من أن يكون سبب المحنة : الإسلام ، ولو لم يكن شعر برصيد ، ولولا إمكانية تصديق هذا لما اعتمد عليه .

فما علينا إلا أن نجرده من هذا الرصيد ، ومن هذه الدعوة ، حتى يقف أمام الإسلام وجهاً لوجه .

وفي الوقت الذي نسلبه الحجة ـ التي نساهم في صنعها ـ سيقف أمام الإسلام وجهاً لوجه ، فنكون بهذا قد غيرنا من أنفسنا ، وغيرنا من موقف غيرنا ، وعلى ألا يمكن أن نقول : إننا نحمل شيئاً من الوزر في عدم إتاحة الفرصة للآخرين ، ليراجعوا ضمائرهم .

الشبهة العاشرة

قولهم ذهب سُدَىً

كنت أتحدث مرة عن هذا العمل ، استشهدت بحديث « أفضل الجهاد : كلمة حقٍّ عند سلطان جائر » ، فقلت : إن الرسول ﷺ لم يقل : الذي ذهب

إلى السلطان بسيف أو رمح يريد أن يقتله أو يغتاله ، وإنما ذهب إليه وصدره مفتوح ليقول الحق ، وإن أَّي ذلك إلى الشهادة[1] ، فقلت هذا الذي ينبغي أن نعمله ، لا أن نحمل سلاحاً إليه ، فقال لي قائل : هل تريد أن يذهب إليه ليذبحه كالخروف ! هذا الفهم للموضوع ، يسلب بادئ الرأي ، كل فضيلة للقوة المعنوية فيعتبر مثل هذا خروفاً ، بينما الرسول ﷺ يعتبره من أعظم الجهاد ، والمسلم الآن يعتبر من يقوم بأعظم الجهاد أنه قام بعمل الخروف .

مفاهيمنا هي التي تخذلنا :

إن هذه الأفكار مترسبة في أعماق الأمة ، ونحن لا نحاول أن نقتلعها أو نضعف من فاعليتها .

وكذلك قولهم إن قُتِلَ ولم يكن هو قَتَلَ ، كأنه ذهب سُدًّى ، وإنما كان يكون موته مفيداً لو أنه مات مقابله آخر ، أو ساق أمامه أكبر قدر ممكن إلى دار الآخرة قبل أن ينتقل إليها هو .

بينما نرى أن الإنسان لا يكون ما أصابه مثيراً للآخرين إلا إذا كان سبب قتله هو إيمانه بأن الله ربه . ونذكر ما قاله مؤمن آل فرعون . كما قال تعالى : (أَتَقتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِي اللهُ) [غافر 28/40] .

الشبهة الحادية عشرة

شبهة التهوُّر والتوريط

---

[1] فنحن عكسنا نظرة القرآن ، حيث يذكر دائماً فضيلة وثواب الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله ، وكذلك نرى هذا الشيء في الحديث الشريف باستفاضة بالغة ، بينما مثل هذا الثناء يكرر على الذين قتل كثيراً . لأن من يحمل في نفسه الشوق إلى الاستشهاد هو الذي يوصل إلى النصر الحقيقي أكثر من الشوق إلى قتل الأعداء مع بقائه سالماً .

إن الشبهة التي ترد على هذا العمل ، قد تكون أحياناً متناقضة ، لأن الحياة الفكرية التي نعيش فيها ، قد جمعت كثيراً من المتناقضات ، فلهذا : يصفون من يعمل هذا أنه متهور ويورط المسلمين ، إلا أن هذه الشبهة لا تدوم طويلاً ، وقد يشتبه الناس فيها لأول مرة ، حيث لم يتعودوا أن من يقول الحق يحميه الله ، إلا إذا أعد قبل ذلك القوة التي بها يحمي حقه ، فإذا تكلم به أحد ظنوا أن وراءه قوة .

ليس المتهور الذي يقول الحق ويتبناه بنفسه ولا يخفيه . وإنما المتهور هو الذي يقوم باستعمال القوة ، سواء ظن أنه ينجو منها أو لا ينجو ، فهذا هو الذي تهور ، وهو الذي ورط أيضاً ، لأن كل من يتصل به توجه إليه التهمة نفسها .

شُبهات أخرى

وهناك شبهات أخرى ، كلها راجعة إلى تقديم الإلزام على الإقناع ، تدور حول العمل على هذه الطريقة ، وكلها راجعة إلى تقديس مظاهر القوة ، وجعل الأولوية لها في تغيير الإنسان . والذين من ثقافتهم الفكرية هذه النظرة ، يقعون في خطأين :

- خطأ محاولة إرغام الآخرين على قبول أفكارهم بالقوة .
- وخطأ الخضوع للقوة إذا لم يكونوا يملكون قوة مثلها .

فإني لا أرى هذا الرأي الذي ينتج عنه مثل هذا الخطأ ، فلا يحاول إخضاع الآخرين لأفكارنا بالقوة ، ولا تخضع لأفكار الآخرين خوفاً من القوة التي بأيديهم .

(وعَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا)

مزايا هذه الطريقة في العمل

1- تكوين الجو الصحي : هذه الفكرة ليست هي غايتنا ، ولكنها الوسيلة والمقدمة للأفكار التي ينبغي أن ترى النور ، وتخرج من الظلام ، الأفكار التي تصحح كثيراً من المنطلقات الخاطئة التي نبدأ منها .

إلا أن تركيز هذه الفكرة الآن ضروري ، إذ إنها صمام الأمان لتهيئة الجو المناسب الخالي من جو الصراع ، ومن تهمة العدوان . فكأننا بهذا نهيئ جواً جديداً لتبادل وجهات النظر بغير السلاح ويغير المسدس والقنابل ، بل بالحجة والمنطق والفكرة ، والشاهد فيها هو التاريخ ، وسُنة الله فيه ، والذي اختلطت فيه الأمور ، أما الجو الذي يفوح برائحة الثأر وروح الانتقام ، ليس هذا الجو هو جو الصحو الفكري الذي يمكن أن يلاحظ فيه الإنسان موارد الأفكار ومصادرها . لهذا كله ، نريد أن نسهم في تكوين جو جديد لا تشيع فيه رائحة الدم والتلُّمظ بالثأر ، ومضغ روح الانتقام والعدوان .

فإن إيجاد الجو الصحي للتفاهم يعطينا فرصة لإمكان بحث الموضوع بشيء من الهدوء .

وهذا يجعلنا نفكر في الوسائل والأهداف التي نريد أن نصل إليها وبواسطتها . واليوم لم يعد بناء المجتمع من الأمور الغيبية ، التي يتحدث فيها بالفرضيات ، بل هو خاضع للقول الكريم ؛ قوله تعالى : (... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ...) [البقرة 111/2] .

فهنالك نخرج من تبادل التهم إلى تبادل النصح والإرشاد ، ومن الاتهام في المقاصد والنوايا إلى تبين مواضع الخطأ في الطريق الموصلة إليه .

إذ قليل هم الذين ينوون الشر لمستقبل هذه الأمة ، وقليل هم الذين يدركون السبل الصحيحة لإبعاد هذا الشر عن الأمة ، وجلب الخير لها .

2- فرد واحد يمكن أن يقوم بها : يمكن أن يقوم بهذه الطريقة فرد واحد أمام الناس جميعاً ، فهكذا بدأ الأنبياء جميعاً يبلغون رسالة الله ، ويعلمون الناس الحق ، ويصبرون على أذية الناس حتى يأتي أمر الله ، ويهلك الظالمين وينصر عباده المؤمنين .

3- منافعها عامة للمتخاصمين : وإن منافعها مشتركة ، ومضارها لا يتحملها إلا من تبناها , أي أن الفوائد التي تحصل منها تعمُّ الطرفين المتنازعين ، والحياديين ، لأن الذي تنازعه إن تراجع عن رأيه بهذه الطريقة لا يشعر بالانهزام والإرغام ، بل يشعر بفضيلة انكشاف الحق والرضوخ له دون إرغام ، كما لا يشعر المنتصر بأنه انتصر بالقوة المرغمة ، فهذه طريقة لنزع الشعور بالذلِّ من المتراجع ، ونزع الغرور من الداعي إلى الحق ، وفيه إيقاظ روح الكفاح من أجل الحق في الناس جميعاً .

أما كون مضارها لا يتحملها إلا صاحبها ، فهذا واضح لأن الذي يقول الحق هو الذي يتحمل تبعة ما يقول ، وهو لا يخفي نفسه بل يعلنها ، فلذا كان من الخطأ أن يكتب شيئاً لا يتبناه من كتبه ، أو ينشر شيئاً لا يتبناه من نشره .

بينما طريقة استخدام القوة لا تقف عند من استعملها بل كل من يتصل بهم يصيبهم الأذى .

هذا ولأن العذاب الذي يلقاه من يعمل بطريقة تبليغ الحق ، يلقاه ليرجع عن عقيدته ، لا لأنه يريد أن يفرضها على الآخرين بالقوة بل كل من يتبنى هذه الطريقة لا يلقي تبعتها على غيره ، ولا يحاول أن يتنصل منها أو أن يتبرأ من العمل الذي قام به . ولهذا لا يعذب لأن يعترف بالأسلحة التي أخفاها ، ول بالخلايا التي يجتمع بها ، ولا بالقادة الذين يصدرون الأوامر إليه . فهو أمامهم وحده ، صحيح أنه وحده ولكنه أمة بالنسبة للمبدأ الذي يدافع عنه .

4- كسب قوة الموقف الصريح الواضح : ومن مزايا هذه الطريقة أيضاً الشعور أمام الآخرين بالصراحة ، وأن لا يشعر بأن وراءه شيئاً يخيفه ، فهذا من الاتزان النفسي وعدم الشعور بالصراع الداخلي . فمن تبنى القوة لا يستطيع أن يقول : إني سأفعل هذا ، فيضطر أن ستر هذا العمل ويخفيه . فهو يشعر بأنه مضطر أن يقابل الناس بوجه ، وأن يقابل نفسه بوجه آخر .

بينما لا يشعر بهذا من يتبنى قول الحق ، ويترك استخدام العنف والقوة من أجل الوصول إلى أغراضه .

5- إزالة الرهبة من السجن : كذلك فإن من يسجن من أجل هذه الطريقة ، لا يخاف أن يكشف عمله أحد لأن عمله مكشوف ، وليس لديه شيء سري يخاف منه ، فهو يشعر بالراحة والطمأنينة في خلوته . وكذلك أصحاب هذا الإنسان الذي سجن لا يخافون من السجين أن يكشف مخططاتهم وأعمالهم ،

لأنها كلها مكشوفة وعلنية ، يقول للباطل ما يقوله في السر وفي العلن ، بل ربما يقول في العلن أكثر مما يقوله فيما بينه وبين نفسه ، فباطنه أنقى وأتقى ، فلا يخاف على شيء أن يكتمه .

6- السجن لا يخاف منه لذاته : وذلك أنه يدرب الناس على عدم الخوف من السجن وعدم الخوف من العذاب ، لأن الإنسان إنما يخاف من أن تنزل عليه هذه المحن ، لا لذات المحن ، ولكن للأسباب التي من أجلها تنزل المحن . فالإنسان مفطور على أن يضحي . لذا ينبغي أن نضع له المثل الأعلى الذي يضحي من اجله .

7- تجريد المخالف من حججه[1] : إنها تمكن من كشف حقيقة من يحمل العداوة للإسلام ، ولكن يحاول أن يستر عداوته له فيتستر وراء كلمات مثل تهمة الإرهابية .

وهذه الطريقة لا تمكن من استخدام هذه التهم ، إذ يرتفع الستار الذي يختفي وراءه ، ويظهر على حقيقته للناس دون أن يجد أي ستار يختفي وراءه .

فنحن لا نريد أن نتبنى شيئاً غير تبليغ رسالة الإسلام .

فلماذا نكون عوناً لأعداء هذا الدين بأن نضع أشياء سبباً لعدوانه علينا ؟

إن الدعوة إلى الله وتبليغ ما أنزل ، كافٍ لكشف الطواغيت على حقيقتهم ، التي هي كظلام الليل الذي ليس فيه أي نور .

---

[1] وكذلك أيضاً إبطال مفعول سلاحه ، لأننا نطالب بالدخول لميدان الصراع الفكري ، ومن طبيعة هذا الصراع ليس الغلب هو أكثر سلاحاً .

فلماذا لا نكتفي بالدعوة إلى الله لإظهارهم على حقائقهم بحيث لا يستطيعون أن يقولوا :

إننا نقتل المسلمين ونعذبهم ونشردهم لأنهم يريدون أن يقتلونا .

وإنما نضطرهم أن يقولوا : إننا نفعل ذلك لأن هؤلاء الدعاة يريدون أن ينشروا الإسلام ويبلغوه .

وبهذا نعيد المعركة بين الحق والباطل فيظهر البغي بوضوح وصدق الله إذ يقول :

(بَل نَقذِفُ بِالحَقِ عَلَى البَاطِلِ فَيَدمَغُهُ فَإِذَا هُو زَاهِقٌ) [الأنبياء 18/21] .

8- استخلاص النماذج البشرية الفاضلة إلى صف الحق والسير بركبه : ثم إن جعل النزاع في هذا الشكل الخلقي الذي يخاطب الإنسان فيه الضمير ، قبل أن يلوح بالعصا ، هذا الإنسان الذي لا يريد جزاءً ولا شكوراً على عمله ، ويتحمل العذاب من أجل الفكرة التي يعود نفعها على الناس جميعاً .

إن هذا الموقف يساعد جداً على تحرير صفوف الخصوم من المغرورين بهم ، إذ إن كثيراً من الطيبين يجعلهم عدم وضوح الصراع على هذا المستوى . الذي يخاطب فيه ضمير الإنسان . خارج المعركة ، أو يتركهم في صف الباطل غير شاعرين بوجود المبدأ الحق الذي يعتقده الداعي حقاً ، بينما لا شعر بوجوده الآخرون ، وهذا يعني أنهم خارج المعركة التي هيؤوا أنفسهم لخوضها ، وبالتالي قد ينضم الكثير منهم لصف الباطل لاسيما إذا اتبع هذا الباطل أسلوب الخداع .

فلهذا كان من أعظم الجرائم لبس الحق بالباطل ، لأن عدم لبس الحق بالباطل ، يجعل الباطل يظهر على حقيقته وتجرده المفضوح إزاء الحق الواضح المبين .

ففي مثل هذا الصراع الواضح لا يجد الباطل عوناً .

لهذا كان من أكبر واجب الدعاة تجريد الباطل من إمكانية لبس باطله بصورة الحق مهما كان وكيفما كان ، لأن صاحب الحق وإن كان فرداً أعزل فإنه يتمتع بقوة الحق الواضح المبين التي يهزم بها أعظم جحافل الباطل .

إلا أن المبطل يستطيع أن يلبس باطله فيتقوى بذلك ، لذا كان لابد من التمحيص لتعرف القوة الذاتية في الحق المبين ، لكي لا يبقى الحق مخفياً لا يراه الناس .

ونحن علينا أن لا نمكن المبطل من التمسك بشيء يمكنه أن يلبسه بالحق ، فإن لم نفعل نكون مساهمين معه بالقدر الذي نفسح له المجال في أن يلبس الحق بالباطل .

9- إيقاظ روح الاجتهاد والاستيقاظ الفكري : ثم من المزايا العظيمة أنه يوقظ روح الاجتهاد في الإنسان ويبعد عنه التقليد ، ويمَكّن الإنسان من أن يوقف الآخر أمام مبدئه لا أمام شخصه أو زعيمه أو جماعته ، وهذا أوجب ما يكون على المسلمين .

لأن الإسلام فيه قوة هائلة لا يستطيع أحد أن يتهمه بالخيانة أو العمالة أو الخطأ ، فالإسلام يحمل القداسة التي فوق كل شيء ، فلا يمكن أن يقال : إن الإسلام باطل . ولا يمكن أن يقال هذا علناً ، وإن كان في قلوب البعض شيء

من ذلك . وهذا الإقرار العلني يجعل المسلم في وضع الهجوم على الآخرين والاتهام لهم فيما إذا عرف كيف يتمسك بدينه وبإسلامه . أي إذا عرف كيف يوقف الآخرين أمام الإسلام لا أمام الأشخاص مهما كانوا نزيهين ، أو أمام الجماعات مهما كانت فاضلة ، فإن العصمة لا تكون للأشخاص ولا للجماعات فيمكن أن يتهم هؤلاء إن لم يكن بالحق فبالباطل .

أما الإسلام فلا يمكن أن يُتهم بحق ولا بباطل ، لأنه يحمل مناعة ذاتية كما أنه يعطي لمن يتمسك به هذه المناعة .

ولكن المسلم المسكين لا يعرف كيف يستفيد من هذه القوة الهائلة ، فيهتم الشخص بأنه من أتباع فلان أو أصحاب فلان .

فإذا اتهم المسلم بذلك أو قيل إن فلاناً خائن أو عميل أو ...

يمكن أن يقول : أنا مسلم ، وهب أن فلاناً كذلك فهل إذا كان فلان كذلك أخرج عن الإسلام بل أزداد تمسكاً به .

وليس القصد إثبات التهم على فلان ، ولكن القصد أن لا يكون ارتباط بين إدانة إنسان وإدانة الإسلام .

والمسلمون على اختلاف منازعهم يفيدهم هذا الموقف فائدة عظيمة .

والمسلمون لا يرفون الحق بالرجال وإنما الرجال بالحق .

فإذا اتخذ المسلمون هذه الطريقة ، فإنهم يجعلون جهدهم مشتركاً دون أن يشعروا بوحدتهم ، لأن كل تمسك يفيد المسلمين جميعاً .

وإن هذا الأسلوب أسلوب إدانة شخص ، ثم إدانة شخص آخر بمجرد أن ينتسب إليه ، ينبغي إبطاله في الإدانة .

إن الإدانة تثبت على الشخص الذي لا يحمل استقلالاً فكرياً ، والذي تكون قوة حجته لا في مبدئه وإنما في شخص قائده أو من يتبعهم ، والأشخاص والأفراد والجماعات ليسوا معصومين .. الإسلام وحده هو المعصوم ، وعلى المسلم أن يعرف كيف يستفيد من استخدام قوة الإسلام ومناعته ذدَّ كل مفترٍ ومبطل .

وأريد أن أعرض هنا بعض الأفكار في العمل الإسلامي .

مفاهيم في العمل الإسلامي

سُنَّة الله في تغيير الواقع الأرضي بتغيير النفس

سُنَّة الله في تغيير الواقع الأرضي بتغيير النفس

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الرعد 11/13] .

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الأنفال 53/8] .

إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة حتى يغير القوم ما بأنفسهم من مفاهيم تستدعي وجود هذه النعمة ، كما لا يغير الله ما بقوم من النقمة حتى يغير القوم ما بأنفسهم من مفاهيم تستدعي وجود تلك النقمة ، وبناء على هذا إذا نظرنا إلى ما بالمسلمين اليوم في واقع حياتهم ينبغي أن نعلم أن ما في واقعهم الأرضي

متناسب تماماً مع ما بأنفسهم من مفاهيم وأفكار ونظريات ، وأن عدم تغيير الله ما بهم متوقف على عدم تغيير المسلمين لما بأنفسهم .

الفصل بين ما في النفس والواقع الأرضي يوقع في الأخطاء

والخطأ الذي يقع فيه المسلمون ، هو محاولتهم الفصل بين هذين الشيئين بطريقة من طرق خداع النفس ، بحيث يظنون أن واقعهم السيئ لا علاقة له بما بأنفسهم من أفكار ومفاهيم وعقائد .

فما بالنفس : يشمل كل متا يعطي لهذا الإنسان نشاطه وسلوكه في الحياة إزاء مواقف حياته الواقعية ، وإذا نظرنا هذه النظرة القرآنية المنطقية الواقعية ، فإلى أين نصل ؟

واقع المسلمين مطابق لما في أنفسهم

يمكن أن نصل إلى أن واقع المسلمين مطابق لما في أنفسهم .

وبما أن واقع المسلمين ليس مما يدعو إلى أن يرتضيه أحد ، فإن موقفنا من أفكارهم ومفاهيمهم ينبغي أن لا يحمل طابع التقدير والإجلال ، لأن واقع المسلمين ليس بالذي يُشَرِّف المسلمين ، فكذلك ينبغي أن تعرف العلاقة الوثيقة ما بين هذا الواقع وما بأنفس المسلمين .

آثار الخلط بين أفكار المسلمين والإسلام

ويقتضي هذا البحث منا أن نقوم بتمييز آخر ، لأن عدم إمكان القيام بهذا التمييز الآخر يجعل عقدة المسلمين غير قابلة للحل ، حيث يجعلهم يدافعون عن الباطل بأعظم ما يتصور من إنسان أن يدافع عن الحق .

وهذا التمييز هو عدم الخلط بين ما أنزل الله وبين أفكار المسلمين ، فإن الخلط بين هذين الأمرين يجعل حلَّ القضية مستعصياً ، بل يجعل الإنسان يقبل التناقض . والعقل الذي يصل به الخلط إلى هذا الحد لا يعود قادراً على حلَّ الأمور حلاً صحيحاً .

وأرجوا أن يساعد المسلم على هذا التمييز ، ما قدمته من أن الخلف في النتيجة هو الدليل القاطع على أن ما أنزل الله ليس هو ما بأنفس المسلمين .

والمسلم إذا أراد أن يدافع عما أنزل الله ، فلا يجوز أن يخلط بما في أنفس المسلمين ، فيقع بغير شعور منه في الدفاع عما بأنفس المسلمين .

فليس الذي بأنفس المسلمين هو الذي في حاجة إلى دفاع ، بل هو الذي في حاجة إلى هجوم ، إذا كنا نشعر بحاجة إلى تغير واقع المسلمين السيئ ، الذي لا يجوز أن نرضى عنه ، والذي هو نتيجة لما بأنفسهم . والوقوع في هذا الخطأ يجعل القضية غير قابلة للحلِّ .

ولعل فهم هذا الموضوع يجعل المسلم يتشكك في أحكامه المسبقة التي يصدرها ، ويعصمه من الوقوع في الدفاع عن المسلمين الذين يضطره أن يدافع عن واقعهم بدون شعور منه .

وبما أن عقل المسلم لديه القدرة التجريدية على فهم الفصل والفارق الجوهري ، بين ما أنزل الله وبين ما بأنفس المسلمين ، فإن لنا أن نقول :

إن الإسلام الذي كان بأنفس المسلمين السابقين ، أنتج واقعهم الذي نعرف ، إذ نصرهم الله بالرعب مسيرة شهر ، بينما الإسلام الذي بأنفس المسلمين اليوم

، أنتج واقعهم الذي هم فيه أيضاً ، وقد أشار إلى وصف هذا الواقع حديث القصعة .

إقبال يميز بين إسلام مُنْزَل وإسلام مُخْتَرَع

فالذي أرجوه هو أن لا يخلط المسلم بين الإسلام الذي كان بأنفس الصحابة ، وبين الإسلام الذي بأنفس المسلمين اليوم ، فهذا الذي جعل محمد إقبال يهتم بأمر خطير ، إذ أعلن ثورة على (الإسلام غير المنَزَّل من الله) الذي وضعه الأعاجم وخيلوا إلى الناس أنه هو الإسلام ، وفرضوه على الأمة التي بعثت لتمحو ما لا يلائم الدعوة القرآنية .

وكان هذا الكيد للإسلام انتقاماً من الهزيمة التي أصابت الأعاجم بسيوف المسلمين ، فقد علموا أن سر القوة والسطوة . في هذه الأمة المجاهدة . سنن القرآن وعقائده التي تبعث الحياة في النفوس ، فكادوا لها ليبعدوها عن القرآن ويركبوها في حبالة (الإسلام غير القرآني) . وقد أحكموا كيدهم حتى حسب المسلم هذا السراب ماء .. كذلكم عمدوا إلى هذه الأمة التي كانت شعلة من العمل والإقدام ، فجعلوها بالاستسلام واليأس كومة من رماد .

فكانت مهمة إقبال نذير الموت لهذا الإسلام غير المنزل وبشير الحياة للإسلام القرآني[1] .

فكان هذا ما يعنيه حينما بين في بيت من الشعر ، ضلال عقل المسلم وقلبه عن حقيقة الإسلام :

---

[1] ضرب الكليم ، صفحة (ص – ق)

ضلَّ عن سرِّ النَّبيِّ المسلمُ   موثناً قد صارَ هذا الحرمُ

الخطورة في مشاركة المخالف في المنطلق

وبعد هذا هل يجوز لنا أن نلمس بعض مفاهيم المسلمين ؟!

إن من أخطر هذه المفاهيم ؛ مشاركة المسلمين الذين يريدون الإصلاح على أساس الإسلام ، مفاهيم الذين يريدون أن يجدوا سبيلاً للإصلاح معرضين عن الإسلام .

فالإسلاميون وغير الإسلاميين ، وكل الأشخاص الذين يعيشون في الجو الثقافي الذي نحن فيه ، والذين لا يرضون عن الأوضاع الحالية عامة ، لا يرون إمكان تغيير الأوضاع بغير الانقلاب السياسي المسلح .

إنني أخاف هذا الرأي وهذا القاسم المشترك لكل الذين يتبنون هذه الفكرة ، وكل الذين لا يرون غير هذه الطريقة ، وإن كانوا لا يتبنونها أو لا يريدون أن يَصْلَوْا حَرَّها .

تقديم دور القوة في التغيير يجمد عمل الفكرة

وقد يقول بعض الإسلاميين ، إنهم ليسوا كذلك ، ولكن الواقع يدلُّ على أنهم ، وإن كانوا لا يتبنونها ، إلا أن تجمد فاعليتهم يدل على أنهم لا يزالون يتصرفون تصرف من سلوكه لا يزال تحت ضغط مثل هذه الأفكار .

سبب عجز المسلم عن مواجهة الأمر بصراحة

إن المسلم الآن يعجز عقله عن أن يواجه هذه القضية بوضوح وصراحة ، فهو يشعر أنه خذل الإسلام إذا صرح أنه ليس من شأنه أن يستخدم القوة في معالجة

مشكلة المجتمع الإسلامي ، بل إنه يشعر ، إن صرح بهذا ، أنه تنازل عن عزة المسلم واستعلائه ، وأنه قد بخع الإسلام في نفسه ، إذ صار عدم التصريح بهذا مرتبطاً بالرجولة والشجاعة وكرامة النفس .. إلخ ، فهذا الشعور هو الذي يمنعه أن يهيئ لنفسه الوضع الذي لا يمكن للآخرين أن يتهموه بمثل هذه التهم .

فعدم تهيئة هذا الجو ، هو الذي يُمكنُ من يريد أن يلصق بالمسلمين ما شاء من التهم ويشل نشاطهم . والحق أن الإسلام لديه القدرة على البقاء والاستمرار في كل الظروف ، فعدم الاستمرار في كل الظروف ليس من طبيعة الإسلام ، ولكن من طبيعة المسلم التاريخي الذي يعيش الآن .

حرمان المسلم من القدرة على التصحيح

إن المسلم يعجزان يراجع نفسه ، وينظر في أعماله وتاريخه نظر من يعرف معنى الاعتبار بأعمال الإنسان ، فهو محتفظ بعوامل إخفاقه ، وليس لديه القدرة على مواجهة ذلك مواجهة صحيحة ،بل إنه فقد معنى التوبة ؛ معنى القدرة على أن ينقذ نفسه ، وأن يشعر بالخطأ لتكون لديه القدرة على تصحيحه .

اعتبار النقد عيباً وتشهيراً

وأذكر هنا ما قاله مالك بن نبي عن النقد الذاتي :

« .. أنه ليس مجرد النجوى المحدودة التي تقوم فيها بِمُسارَّة الزميل المجتبي ضمن خلوة حميمة، ولكنه الإعلان المشهود عن الخطأ على رؤوس الملأ »[1] .

إنه القاسم المشترك الذي يميز الإنسان المتخلف عن الحضارة الإسلامية .

---

[1] مالك بن نبي ، القضايا الكبرى ، ص 113 طبعة أولى 1991 ، دار الفكر ، دمشق .

فهذا الخلف محكوم بهذا الطابع العام الذي يشترك فيه مع من ينازعهم .

فإذا أمكننا أن نعلم الطريق الشرعي ، وسنة الله الحقيقية لطبيعة العلاقة بين الأمم ومسيري أمورها ، عرفنا كيف نسلكها .

وإذا كنا نتبنى الطريق الشرعي الطبيعي ، ولا نريد أن نحيد عنه ، فإننا نحج كل أولئك الذين يريدون أن يجعلوا هذه العلاقة على طريقة غير شرعية .

وإذا كنا نعتبر محاولة غيرنا سلوك الطريق الذي سلكوه ، محاولة غير شرعية ، وكنا ننتقدهم ، لكان الواجب علينا أن نسلك طريقاً غير هذا للوصول إلى حيث نحن .

إذن فالذين يتبنون هذه الطريقة طريقة الأنبياء في إنشاء المجتمع المتميز ، هم الذين يجوز لهم أن ينتقدوا هذه الطرق التي تأتي الأمور من غير أبوابها ، لا الذين يأتون البيوت من ظهورها .

ودعوة الله أكرم من أن يسلك بها هذه المسالك .

هذه الطريقة ليست لتفادي المحنة بل لجعل المحنة مثمرة

ثم لا أقول هذا تفادياً للمحن ، ولا أقول : إن المحن لا تنزل بالمسلمين إذا لم يسلكوا طريق القوة ، كيف أقول هذا والله يقول :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) [العنكبوت 2/29] .

بل الذي أقول : إن المحن ستنزل ، ولكن النتائج ستختلف ، لأن مثل هذه الأعمال مركبات تختلف في التأثير على النفس الإنسانية ، فبمقدار ما يحتوي

التركيب من العناصر المختلفة عن التركيب الصحيح ، يكون الخلف في نتائج استعمالاتها ، فلهذا أريد أن أبعد عن هذا التركيب مواد استخدام القوة ، وأزيل الشبهة التي تمكن من قابلية الاتهام بهذا . وإن كان لابد من دخول الصراع فليكن على مستوى :

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [البروج 8/85] .(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ...) [غافر 27/40] .

فهذا الذي أحبه لنفسي وأحبه للمسلمين وأحب أن يتأملوا فيه ، ولعلي أكون قد ساهمت في تمكين المسلم من مراجعة نفسه في هذا الموضوع . فأنا أبرأ من أعمال العنف ، ومن الجو الذي يمكن أن يجلب إلينا تهمة أعمال العنف ، ولنا في قول الحق نعم الخلف ، حتى يتميز المجتمع المسلم .

التبرؤ من أعمال العنف ليس تبرؤاً من المسلم

ثم إذا تبرأنا من عمل ما أو من موقف ما فليس معناه أننا نبرأ من المسلمين . فلقد جاء في صحيح البخاري :

أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا ، فجعل خالد يقتلهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فرفع يديه وقال " « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد »[1] . ولم يبرأ رسول الله ﷺ من خالد وإنما مما صنع خالد .

الاستفادة من التجارب

[1] ابن كثير ، الجزء الأول ، ص 535 .

وإذا تحمل أحد الآلام ، فإن هذه الآلام لن تذهب سدى ، بل هي التي سترشدنا إلى الطريق ، فإذا استخدمنا ما استفدناه من المعرفة على ضوء تجربته في تقرير اتجاهنا فليس معناه أننا لم نعد نحترمه ، بل يكون عدم احترامه في أن لا تؤثر تجربته في طريقة سيرنا .

موضع المؤاخذة

ونحن لا نمثل شهود نفي والإثبات في هذه القضية ، وإنما الذي نؤاخذ فيه هو ترك مثل هذا الموضوع الهام وهذه القضية الكبرى في لبس ، وأن تظل معلقة ، فعلى أقل تقدير ينبغي أن يعلن الرأي الصريح الذي يشعر بصدق الدعوى بياناً وعملاً من قبل قادة الرأي وعلى ملأ من الناس ، ولا سيما الشباب الصغار الذين لم يتوضح لهم هذا الأمر ، فهم يتبنون فكرة القوة أكثر من غيرهم ، فتأكيد القادة في هذا الموضوع هو الذي سيشفي هذه العلة عند الأتباع الصغار ، كما فعل الأستاذ المودودي في مناسبات مختلفة ، ونذكر هنا ما جاء في الوصية التي قدمها للعاملين للإسلام حين خاطبهم في مكة المكرمة فقال :

« أيها الإخوة الكرام ! وأحب في ختام كلمتي هذه أن أوجه إليكم نصيحة : هي أن لا تقوموا بعمل جمعيات سرية لتحقيق الأهداف ، ولا تلجؤوا إلى استعمال العنف والقوة والسلاح لتغيير الأوضاع ، لأن هذه أيضاً من الاستعجال ومحاولة الوصول إلى الهدف بأقصر طريق .

وهذا الأمر أسوأ عاقبة وأكثر ضرراً من كل صورة أخرى .

إن الانقلاب الصحيح السليم قد حصل في الماضي ، وسيحصل في المستقبل ، بجمعيات علنية يكون نشاطها واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار لكل إنسان .

فعليكم أن تنشروا دعوتكم بطريق علني ، وتقوموا بإصلاح قلوب الناس وعقولهم في أوسع نطاق ، وتسَخّروا الناس لغاياتكم بأسلحة من الخُلُق الكريم والفضيلة ، وأن توجهوا كل ما يقابلكم من المحن والشدائد موجهة الأبطال ، فهذا هو الطريق الذي يمكننا من عمل انقلاب عميق الجذور ، راسخ الأسس ، قوي الدعائم ، كبير النفع ، في حق هذه الأمة المسكينة ، ولا يمكن لأي قوة معادية أن تقف في وجهه .

أقول : إن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها .

أما إذا استجبتم وقمتم بانقلاب بوسائل العنف ، ونجحتم إلى حد ما ، فسيكون مثله كمثل الهواء الذي يدخل من الباب ليخرج من الشباك .

هذه هي النصائح التي أوجهها لكل من يقوم بأمر الدعوة »[1] .

سبب الإلحاح

والذي يجعلني شديد الحرص والإلحاح في هذا الموضوع ؛ هو ما توقعه في العقود القادمة ، من إمكان اشتداد الصراع ، وتضخم النزاع ، وزيادة عجز المسلمين ، وتضاعف عقُدهم وعجزهم عن مواجهتها .

---

[1] خطبة الأستاذ المودودي في مسجد الدهلوي بمكة المكرمة ، والمنشور في مجلة الحج وحضارة الإسلام ، والتي أصدرت أخيراً كتاب واجب الشباب المسلم اليوم . كما نشرت أيضاً في كتاب محنة الجماعة الإسلامية .

فعلى الدعاة إلى لله أن يتصبروا للمسلمين ، فإن الأيام القادمة ستكون سُنة الأنبياء في دخولهم حلبة الصراع وزادهم :

(رَبُّنا اللهُ) [الأحقاف 13/46] .

(وَمَا عَلَينا إلاَّ البَلاغُ المبِينُ) [يس 17/36] .

روَّاد الفكر

واليوم قد صار للمسلمين رواد في الفكر ، قد بيَّنوا الواجبات الحقيقية وأزالوا عن سنة الله في التغيير كثيراً من الغموض الذي كان لاحقاً بها ، ولكن توجيهاتهم لم تصل ولم تنتشر في الأوساط الإسلامية ، وهذا ينبغي أن نقوم به .

وإذا انتقدتُ أوضاع المسلمين ، فإن ذلك مما استفدته أيضاً من أولئك الرواد . وإن كان هذا الانتقاد غريباً كل الغرابة عن أجواء المسلمين وما تعودوه .

الموقف الصحيح من إنتاجهم

ومما ينبغي التنبيه إليه : هو أن الثقة التي نوليها لأولئك الرواد ينبغي أن تكون الثقة التي تثبتها الطريقة القرآنية أي الطريقة البرهانية (قُلْ هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ) [البقرة 111/2] .

ولا خير في ثقة لا يشيعها البرهان ، ومثل هذه الثقة التي لم يلدها البرهان هي التي تفقد قيمتها بتحويل رصيدها من البرهان إلى الشخص . أي أن وجاهة الشخص هي التي تحل محل البرهان مما يجعل الثقة قيمتها الحقيقية حتى يصير الإنسان عاجزاً عن إدراك وجه الصواب في أمور بدهية .

غير أن هذا الكلام وصفي لا يجدي إلا قليلاً في إحداث التغيير في مثل هذا الموقف ، لأن ذلك يقتضي تغيير الجو الثقافي الذي يعارض الأسلوب البرهاني .

ذهان[1] القوة وقوة الفكرة

« .. في القرن التاسع عشر كانت العلاقات بين الأمم والشعوب علاقات قوة ، وكان مركز الأمة يقدر بعدد مصانعها ومدافعها وأساطيلها ورصيدها من الذهب .

ولكن القرن العشرين قد سجل في هذا الصدد تطوراً ملحوظاً هو أنه قد أعلى من شأن الفكرة باعتبارها قيمة دولية .

وهذا التطور لم تشعر به كثير من البلدان المتخلفة ، لأن عقدة تخلفها ذاتها قد نصبت في طريقها ضرباً من الغرام السقيم بمقاييس القوة أي بالمقاييس القائمة على الأشياء .. »[2] .

وصعب على المسلم أن يدرك مكانة القوة حيث خفي عليه عمل الفكرة ، وأن قوة المادة إنما هي من مواليد الفكرة ، وأن عكس القضية في هذا يعقد الأمور . إلا أنه عميق الجذور متشرب في النفوس منذ أن كلن يقول أبو تمام وأمثاله :

السيف أصدق إنباءً من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

محا السيف أسطار البلاغة والتحى .. إلخ .

---

[1] الذهان : (Paranoia) مرض ذهني .

[2] كتاب مشكلة الثقافة لمالك بن نبي ، ص 5 .

فهذا الذي جعل مالكاً يقول : « عقدة التخلف نصبت في طريقها ضرباً من الغرام السقيم بمقاييس القوة ، والذين يملكون الذرة اليوم يعجزون عن نشر فكرتهم بواسطة القوة » .

فهل يكون طن المسلم في محله ، إن طن أن عجزه عن تبليغ فكرته إنما هو لأنه لا يملك السلاح ؟

وفي هذا يقول صاحب كتاب (ما يقال عن الإسلام) :

« .. إن حامل الذرة يضعف اليوم عن السلطان الذي اقتدر عليه آباؤه وأجداده بما دون ذلك من عدة قاطعة ، وحيلة واسعة . ولو لم تكن عبرة من عبر الحكمة الإلهية لكان سلاح الذرة أولى بتحكم الغرب في الشرق وسيادة الأقوياء على الضعفاء من أسلحة القرن الغابر والذي قبله ، وهي في جانب القذيفة الجهنمية أضعف من العصا في جانب السيف .

وحين يذكر الأقوياء أنهم نسوا أن الضعيف المغلوب إنسان ، فذكروا ذلك مكرهين يوم بلغوا بالسلاح غايته من القوة والجبروت ، فهم يستعيدون اليوم نعمة الإنسانية على أنفسهم كما رضخوا بهذه النعمة للضعفاء وعجزوا عن سلبهم إياها في عصر الذرة والصاروخ ا هـ »[1] .

الخاتمة

التطرُّف وذهاب العلم

---

[1] كتاب ما يقال عن الإسلام ، العقاد ، ص 187 .

إن طرح موضوع التطرف للحوار يعتبر تقدماً ، ومبشراً بالأمل في إمكان تجاوز المشكلة أو قرب تجاوزها .

نقول هذا لنون في جانب المتفائلين المبشرين الميسرين ، من غير أن نقلل من قيمة الصعوبات التي تعترض هذا التجاوز ، ويتطلبه من إعادة نظر في كثير من المسلمات التي طال عليها الأمد وأحاط بها الغموض ، أو من التخلي عن أفكار ظلت عزيزة علينا .

إن بحث مثل هذه يبدأ يراود بعض الأذهان ، ثم تنتقل المراودة الفكرية التي ربما يتردد أصحابها في الإعراب عنها ، من المناجاة الذاتية إلى همسات بين نفر قليل . ثم تبدأ بعد ذلك تتسرب إلى أن يبدأ الشعور بضرورة طرح البحث للحوار والمداولة العامة دون تحرج ، وقد يتسرع البعض فيخرجون من منطقة أمان البحث ، مما يؤدي إلى علاقات باردة أو متوترة ، وانشقاقات تطيل من آلام المخاض للانتقال إلى عالم جديد تقلُّ فيه المشكلات ، ويتعافى الناس فيه من دفع غرامات المعرفة ضرائب من القلق والعرق والدماء .

ومع اعترافنا بضآلة إمكاناتنا ، التي لا تتناسب مع ما يحتاج إليه مجرد طرح المشكلة على الحوار بشكل مهذب ، مع ذلك فإننا نتفاءل ، لأننا نحس بخلفية المشكلة التي مرت بمراحل فرضت على أصحابها المرور بمناطق صعبة التضاريس ، أكسبتهم كثيراً من النظرات التي تفتقر بيئتنا التقليدية إلى إعارة الانتباه إليها .

وحين لا ندرك ما عاناه هؤلاء الكتاب والمفكرون ، حتى وصلوا إلى القدرة على الكتابة بشكل يخاطب عقل القارئ ويهذب من انفعالاته ، حين لا ندرك

ذلك تخفى علينا العمليات الكبرى التي تحدث في نفوس الناس ليصلوا إلى هذه المرتبة ، مما يؤدي إلى التقليل من قيمة البحث والدرس ، والاستفادة من البيئة الأوسع مدى وهي : (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ) [الأحزاب 38/33] .

كذلك الأمر ، عندما ينسب الباحث ما اهتدى إليه خاصية في ذاته ، أو إلى تجرده وموضوعيته ، ويسد أمام ناشئتنا طريقة رؤية آيات الله في الآفاق والأنفس ، وهي طريقة اكتساب المعرفة بالنظر إلى (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) [العنكبوت 20/29] .

وتحت عنوان هذه الطريقة القرآنية ، ينبغي أن نعيد أسلوب نظراتنا التقليدية ، وترتيب متاعنا الفكري ، الذي نحكم به على العالم المحيط بنا .

وهي طريقة ليست معبدة ، ولا تناولها ميسر في بيئتنا الثقافية التي تحتاج إلى إحداث تغييرات جذرية في طرائق المعرفة ومصادرها :

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الأنفال 53/8] .

النصوص المجردة عن الدعم بالعلم

إن أسلوب التعويض الذي نمارسه في رفع قدر آيات الله في الكتاب ، تعوزه القدرة على إظهار آيات الله في الآفاق والأنفس ، التي تتطلب سيراً في الأرض ، وإحصاءً لأيام الله ، ونظراً إلى عاقبة الذين خلوا من قبل ، ورؤية لسنة الله التي لن تجدها لها تبديلاً ، ولن تجد لها تحويلاً .

وبما أننا لا نملك قدماً راسخة في هذا الموضوع ، ولا نقدر على تبسيط العلم شأن الربانيين الذين يعلمون الكتاب ويدرسونه ، تكون الأمثلة التي تخطر لنا غير مهضومة ، والتي نقدر على قبولها أو تمثلها غير مطوعة لنا . فمن تقدم إلى رهان العالم بشاهِدَيْ آيات الله في الآفاق والأنفس ، فستحكم له سنة الله بالغلب ، وستخضع له أعناق الناس طوعاً واستسلاماً ، وإن استعصى عليه جيل بسبب من الآصار والأغلال ، فستسلم الأجيال اللاحقة .

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) [المجادلة 21/58] .

(وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) [ص 88/38] .

إن الذي يعلم كيف بدأ الله الخلق ، سيكشف أن « الله يعطي بالرفق ما لا يعطي على العنف ، وأن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا يخلو من شيء إلا شانه » .

إن الوعظ بهذا الحديث عن لم يتدعم بآيات الله في الآفاق والأنفس ليأخذ مكانه الصحيح في القانون العام ، فستضيع قيمته في خضم الأحداث الجزئية .

وهنا ربما يمكن أن تظهر ضآلة قيمة العلاج بالنصوص ، حين تفقد هذه النصوص الدعم بآيات الله في الآفاق والأنفس ، وخاصة في الابتلاء الجديد الذي نعايشه . ولكي تؤدي النصوص دورها الإيجابي ، لابد أن تأخذ آيات الآفاق والأنفس دورها الإيجابي أيضاً وهذا الدور يمكن أن يظهر جلياً في الحوار الذي بين رسول الله ﷺ وبين ابن لبيد حين اعترض هذا الصحابي على حكم

رسول الله ﷺ انطلاقاً من فعالية النصوص المجردة من الدعم بالعلم (آيات الله في الآفاق والأنفس) .

وقد ذكر هذا الحوار ابن كثير وصححه عند تفسير قوله تعالى :

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ الْإِثْمَ) [المائدة 63/5] .

قال « ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال :وذاك عند ذهاب العلم .

قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ؟ ونحن قرأنا القرآن ونُقْرِئه أبناءنا ، وأبناؤنا يقرئون أبناءهم . فقال :

« ثكلتك أمك يا ابن لبيد ، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة . أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيها بشيء » .

ويمكن أن يعتبر هذا الحوار مدخلاً مهماً إلى المشكلة التي المسلمون وسواهم ، من النصوص التي يتجاذبونها ويتطارحونها ، سواء في طريقة ثبوت النص (علم الرواية) ، الذي توسع فيه المسلمون ، أو في دلالة النص على المعنى المراد (علم الدراية) الذي هو ضئيل الحجم بالنسبة إلى علم الرواية .

وفي غياب العلم الذي ضاع مفهومه عندنا ، عزَّ الشفاء من الأدواء بواسطة النصوص ، وخاصة بالأسلوب الذي نتناولها به . ففي حديث ابن لبيد . السابق ذكره . نجد اختلافاً في الفهم بين الرسول ﷺ وبين صاحبه (رضي الله عنه) .

فرسول الله ﷺ يشرح مشكلة من مشكلات المجتمع التي تحدث عند ذهاب العلم ، والصحابي يعترض بأن النصوص معنا ونورثها أبناءنا ، ولكن الرسول ﷺ لم ينقض له رأيه بنص قرآني آخر ، أو بأنه لا ينطق عن الهوى . وإنما يرده إلى

الاعتبار بحدث من الوقائع الاجتماعية التاريخية ، حدث له تاريخه وحاضره المشاهد . ورسول الله ﷺ هنا يُري الصحابي آيات الله في الآفاق والنفس ، ويسنُّ لنا بذلك أهمية الاستدلال بالأحداث التاريخية في الاهتداء إلى الحق .

فالعلم المذكور في هذا الحديث النبوي مفسر بالسابقة التاريخية .

وقد ننتحل أساليب لاستنباط أن آيات الكتاب كافية ، ونستدل بأحاديث وآيات أخرى تحثُّ على التمسك بالكتاب والسُّنَّة .

ولكن المراد بحديث ابن لبيد ألا نعضَّ على الكتاب والسنة بالنواجذ ، وإنما المراد أن الشفاء الذي نبغيه بهما يحتاج إلى شروط معينة في الإنسان ومعرفة بالسوابق التاريخية ، لأن النص وحده في ظل ظروف معينة لا يحل المشكلة ، فلا بد من العلم الذي يشهد لآيات الكتاب بأنها حق ..

(لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ) [المدثر 31/74] .

إن الفقراء في معرفة آيات الله في الآفاق والأنفس ، لا تزكو على أيديهم أموال ولا أنفس ، ولا ينتفعون من كتاب ولا من سنة .. ويظلون ينشدون :

بأيديهم نوران ذِكْرُ وسُنَّةُ　　　فما بالهم في حالكِ الظُّلُماتِ

ونموذج العلم في حديث ابن لبيد ، هو رؤية حدث تاريخي لقوم معهم كتاب سماوي لا ينتفعون مما فيه بشيء ، وهذه الحالة يمكن أن تجري أيضاً على المسلمين ، ومزايا القرآن الكريم عن الكتب السماوية لا تنسخ الاستدلال بالسوابق التاريخية ، التي أكد القرآن الكريم كثيراً على الاستدلال بها ، فيما ذكره

من أخبار الأمم السابقة ، لأن البشر يخضعون لسنن ثابتة ، وإن الله يأمرنا بالاعتبار وليس هناك اعتبار بمن لا يشبهنا ولا نشبهه .

وكما يقول لبن تيمية في تعريف سنة الله : « أن يُفعل في الثاني ما فُعل في الأول » .

وقد عانى من قبلنا من مشكلة التعامل المجرد مع النصوص ، ففي وصية الإمام علي بن أبي طالب لابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن يتجنب مناقشة النص مع الخوارج ، وأن يناقشهم في السنة العملية لأن مجال التأويل في النصوص واسع ، وهذه المعاناة جعلت ابن تيمية يصرح بأن مجرد الرد إلى الكتاب والسنة ليس حلاً للمشكلة ، لأن لكل طائفة مفاهيمها الخاصة التي تفسر بها الكتاب والسنة . والمعروف في التاريخ أن الذين دعوا إلى تحكيم كتاب الله في الخلاف بين المسلمين ، لم يكونوا أنزه الطرفين المتنازعين ولا أبرأهم من الهوى .

ويذكر ابن تيمية قاعدة هامة : « إن الحرام في الشرع ما هو ضار دائماً أو غالباً ، وأن الواجب ما هو نافع دائماً أو غالياً » .

ولقد ذكر ابن قيم الجوزية في (أعلام الموقعين) هذه القاعدة ، وذكر عليها مثالاً : (الخروج على الحكام) فذكر أن هذا الأمر مثال على الضار غالباً ، وأن الشرع حرم الخروج أو نهى عنه لمثل هذه الاعتبارات .

كما أن ابن خلدون حكم على الخارجين من دعاة إقامة أحكام القرآن عند الأزمات ، بأنهم يغفلون عن سنن الله في نشأة الدول والممالك واستمرارها ..

إن مثل هذه الأحكام إنما تُسقى من المعرفة الدقيقة لأحداث التاريخ ، تلك المعرفة التي ترشد إلى أهداف النصوص وتصحح فهمنا لها . والحاصل أن الذي يجعل النصوص تأخذ منحاها ، في توجيهها وتحديدها وأسباب سياقها وأهدافها ، ويقطع الجدال فيها ، إنما يأتي من آيات الله في الآفاق والأنفس .

إن موضوع معرفة (كيف بدأ الله الخلق) لا يزال غامضاً عائم المفهومية في ثقافتنا ، لا نجد له خلفية تدل على مفهوم محدد ومنهج معين ، فهو يحتاج إلى دراسات وبحوث .

وبما أن موضوعه يتصل بتاريخ كل شيء ، فكأنه تاريخ الوجود كله ، فكل موضوع له تاريخ ، وتاريخه هو الذي يبين كيف بدأ خلقه .

ولقد عاش الناس آلاف السنين يؤمنون بفكرة خاطئة عن الشمس التي يُضرب المثل في الوضوح ، إذ كانوا يعتقدون بأنها هي التي تدور حول الأرض ، وإذا بالنظر الظاهري ينقلب رأساً على عقب من جراء تأمل آيات الله في الآفاق . والذي نريده من هذا الأمر هو كيف أن النصوص المقدسة كانت تستخدم لإزهاق أرواح المخالفين .

فإذا كان البشر يقعون في مثل ذلك الخطأ ، ويخرجون من نتيجة العلم وتأمل آيات الله في الآفاق ، فيمكن لنا أن نتصور ذلك في الموضوع الآتي الشبيه به :

لو علمنا الآن من عوامل سلوك البشر والمجتمعات وأسرارها ، كما علمنا من حقائق الفلك ، لحدث لنا انقلاب في فهم سلوك البشر ، ولتغير نظرنا إلى الآيات المتعلقة به ، ولتردد كثير من هؤلاء الذين عندهم استعداد تام لتقديم

أنفسهم وغيرهم قرابيين وأضاحي لآرائهم التي ينسبونها إلى الله تعالى ، ولكان لهم موقف مختلف . وهنا ستشهد آيات الله في الآفاق والأنفس بالحق لما نزل من عند الحق ، لا لآرائنا التي سيطرت علينا والتي لا نعرف كيف بدأ خلق سيطرتها علينا ، ولا العوامل التي أوجدتها أو التي رسختها وزادت في تمكنها .

(قل هو من عند أنفسكم)

فلو حدث لنا اطلاع على عوامل سلوك البشر كما حصل لنا بعض الاطلاع على سنن الله في خلق السموات والأرض والشمس والقمر لتوجهت النصوص وجهة أخرى ، ولعلمنا أن النصوص تهتم بالعوامل الداخلية في الأمم التي تصاب بالنكبات ، أكثر من التوجه إلى المظاهر التي تجلب النكبات أو تصاحبها أو تقع على يدها ، ولتغير أسلوبنا في الحديث عن مؤامرات الأعداء ، ومخططاتهم ومسارعات أذنابهم ، ولعلمنا أن مفتاح الفعالية للمؤامرات والمخططات موجود عندنا .

ولعل القرآن الكريم هو المتفرد في تاريخ النصوص المأثورة ، الذي يعطي الاهتمام في معالجة مشكلات المجتمع ، للظلم الذي يوقعه المظلومون على أنفسهم ، أكثر من الظلم الذي يقترفه الآخرون ضدهم ، وحديث رسول الله ﷺ : « من وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه » . يؤكد ذلك .

ونحن عندنا استعداد لنتصيد كبش الفداء من لا شيء ، شرط أن تظل ذواتنا مقدسة غير قابلة للوم .

ويمكن أن نفهم في ضوء آيات الآفاق والأنفس ، أن الذي جعل آدم أهلاً للاستخلاف في الأرض أنه استطاع أن يجتاز الامتحان الكبير حين وقع في الخطيئة ، فقال : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) [الأعراف 23/7] .

ولم يسقط كما سقط إبليس حين قال : (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي) [الأعراف 16/7] .

بهذا الاعتراف الصعب والاجتياز المبين استأهل آدم سجود الملائكة له . ولكن أسلوب الشيطان يغرينا كثيراً ، ولا نحب الذي يتحدث إلينا عن المسلك الذي اختاره آدم .

ولعل مثل هذا النظر هو الذي وجه موعظة الإنجيل إلى خراف بني إسرائيل بأنهم أبناء إبليس ، وليسوا أبناء إبراهيم عليه السلام .

أسلوب (لأَقْتُلَنَّكَ)

وآيات الآفاق والأنفس تفيد في فهم أهداف النصوص ، وتحديدها ، كما كرنا .. وتفيد أيضاً في رؤية الوسائل البديلة التي يصل بها الإنسان إلى غاياته ، فمن شأن الإنسان أن يظل متمسكاً بالأسلوب الذي تعود أن يحل به مشكلاته ، ولاسيما التي تتعلق ببقائه الحيوي والاجتماعي ، إلى أن يجد بديلاً عن ذلك الأسلوب أحسن كفاءة وأحسن عُقبى .

فلو تصورنا إنساناً متعلقاً بدعامة واهية على شفا هاوية ، فليس الذي يجعله يترك دعامته أن نقلل من قيمتها وجدواها . وإنما أن نقدم له ما ينفذه من الخطر

الذي هو فيه . فحين نبرز له البديل ونجعله في متناوله إدراكاً واقتداراً ، فسوف يترك ما هو فيه .

وفي بعض الأحيان - مثلاً - تُسول للإنسان نفسه أن قتل الباطل أسهل عليه من إبراز الحق جاهلاً أن الباطل يزول حين يجيء الحق .

ولا يظهر لنا هذا الأمر بوضوح إلا إذا كان لنا تصور أوفى لما عاناه الإنسان في تاريخه الطويل من عهد ابن آدم الأول الذي قتل أخاه إلى يومنا هذا .

إن الميل إلى أسلوب (لأَقْتُلَنَّكَ) أسهل من تأمل الأسباب المجدية التي تجعل المساعي ناجحة والأعمال متقلبة .

إن رؤية البديل وتقديمه أمر ضروري ، وبدونه يكون من السهل تجاهل سعينا وإهماله وعدم الالتفات إليه . ورؤية البدائل ليست أمراً سهلاً ، فقد تكون البدائل موجودة - وهي موجودة فعلاً - ولكن دون إبصارها مفاوز :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) [يوسف 105/12] .

وكما استحق ابن لبيد أن يقول له رسول الله ﷺ : « ثكلتك أمك يا ابن لبيد » ، ثم ننبهه إلى واقع اجتماعي معاش ، يمكن أن نقول : أوليس هذه اليابان وألمانيا قد استطاعتا أن تتجاوز أزمة من أقسى الأزمات بحرمانها من هذا الذي نظن أن المشاكل لا تحل إلا به ، وهو الوسائل العنيفة العتيقة التي يواجه العالم أزمة التخلص منها . إن ألمانيا واليابان لم تفعلا ما فعلتاه اختياراً ، وإنما اضطراراً مع الاستسلام الرهيب بدون قيد أو شرط . وبهذا استطعنا في مدى

جيل واحد أن تنقذا نفسيهما وماء وجههما بغير الوسائل العسكرية والعنف ، وأظهرتا لمن يريد أن يعتبر أنه يمكن التغلب على المشكلات بوسائل العلم .

إنها لآية جديرة بالتأمل والدراسة والاعتبار « فمن كان له أذنان للسمع فليسمع » .

لكن كيف نعتبر بسوابق العالم التاريخية ، وسوابقنا التاريخية لا نحسن تمثلها !

فمع التشديد المؤكد على الاقتداء بصاحب الرسالة محمد ﷺ ، وبالرغم من إعادة الحكمة المأثورة : (إنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) ، نجد أننا لا نلاحظ أن الرسول ﷺ لم يصل إلى الحكم بوسائل العنف ، وإنما بالتسليم الطوعي له والقبول به .

الجهاد والخروج

ولكن المشكلة التي ضاعت مفاتيحها وإدراك سُننها وشروطها الدقيقة في خضم الفتن المتتالية ، هي تحليل مفهوم الجهاد الذي قام به الرسول ﷺ ، واختلاط هذا الجهاد بجهاد الخوارج .

وهنا ينبغي أن نشير إلى ما ينبغي أن يتوفر فيمن توضع في يده أمانة دماء الناس وأموالهم . فإن تنفيذ الحدود وممارسة الجهاد يحتاج من يتقلدها أن يكون مؤهلاً لحمل الأمانة ، وأن يكون وصل إلى حيث هو بدون خرق هذه الشروط . فحين تبيح لنفسك أن تخرج على من يخالفك في النظر ، فقد أبَحت له أن يفعل هذا . وإن هذه الطريق الصعبة هي التي ألزمت الرسول ﷺ المضطهدين هذا الانضباط الصعب ، فلم يسمح الرسول ﷺ المضطهدين لأحد منهم أن يمارس

حتى حق الدفاع الفردي عن النفس الذي يباح في ظروف أخرى ، ولم يشذ عن هذه القاعدة أحد من أصحابه .

إنه تدريب على التأهيل ، حتى لا تتحكم فيهم الأهواء حين يُستخلَفون في الأرض .

وحسب ما نرى : هذا هو سبب هذه الظاهرة المهمة ظاهرة منع ممارسة العنف أو الخروج في نشأة المجتمع الإسلامي الأول . فليس الأمر مجرد عهد مكي أو مدني ولا راشدي أو أموي .. المغزى أن قطع دابر الخروج لا يكون بالخروج ، وأن النصوص التي تحذر من الخروج تكافئ التي ترغب في الجهاد .

إن آيات الآفاق والأنفس هي التي ستزيل الاشتباه بين الجهاد والخروج ، وتضع حداً يمنع من الالتباس الذي يؤدي إلى النزاع (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) [ص 88/38] .

وبغير هذا سوف تضيع قيمة النصوص والأحاديث الواردة في أبواب الفتن في كتب السُّنة ، والتي تصل إلى درجة أن يقول : قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل عليَّ بيتي ، وبسط يده ليقتلني ؟! قال : فقال رسول الله ﷺ : « كن كابن آدم » ، وتلا يزيد بن خالد الرملي (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ..) الآية ، وفي حديث آخر : أرأيت إن دخل عليَّ بيتي ؟! قال : « فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف ، فألقِ ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه » .

ثم أن هذه السنة التي تنشأ المجتمع الأول عليها تقطع تسلسل الخطأ حيث لا تبرر إزالة الخطأ ، إن الذين لا يهضمون هذه الأفكار ولا يراعونها ، ويتجاوزونها

في نظراتهم المستعجلة ، سيفاجؤون بما لم يحتسبوه .. سيفاجؤون بأن الحكم الذي كانوا يظنون أنه شفاء من كل داء ، إنما هو مرآة تعكس سيئات المجتمع على أتم بشاعته وعنفوانه .. وسيتبين لهم أن هذا الأسلوب الذي استخدموه مع مخالفيهم في الرأي ، سيرجع إليهم وسيوجد في الأمة من لا يرضى عن سلوكهم ولو كانوا في عدل علي ورحمة عثمان (رضي الله عنهما) .

إني لست متنبئاً ولا متكهناً .. ولكن من له نظر في آيات الله في الآفاق والأنفس وسُنته فيهما ، سيعلم أن سنة الله أن يُفعل في الثاني ما فُعل في الأول ، ومن نظر بهذا سيرى مواقع الفتن كمواقع المطر .

وإنا لعلى يقين من ضآلة الذي نطلع به على آيات الله في الآفاق والأنفس ، كما أننا على يقين من أن الذين تيسر لهم نصيب أوفر ، سيرون أسباب المشاكل السلوكية ويقدرون على حلها .. وسوف يُعافى المجتمع من العوامل التي تحمل أهله على أن يذيق بعضهم بأس بعض ، كما عُفي الناس من الأوبئة التي كانت تصيب أبدانهم .. ولمثل هذا فليعمل العاملون .

العنف مرض العصر

إن مرض العنف ليس مرض الشباب فقط ، وإن كانوا أجرأ على حمله .

إن العالم مله مريض بتلك الجرثومة ؛ اليمين منه واليسار على السواء ، وحتى الزوايا المطوية من سرائر الصوفية تجد فيها الجينات التي تحمل هذه الموروثات الثقافية .

إن الموضوع يحتاج إلى انقلاب شامل في سلوك البشر ، فنحن لا نزال في مرحلة التصديق لتهمة الملائكة لبني آدم بالفساد في الأرض وسفك الدماء .

(قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة 30/2] .

إننا نحمل جرثومة ابن آدم الفاشل الذي لمُ يتقبل قربانه ، والذي كان أسلوبه في علاج المشكلة أن قال لأخيه : (لأَقْتُلَنَّكَ) [المائدة 27/5] .

ومن قبل نتذكر كيف واجه بنو إسرائيل موسى (عليه السلام) حسن قال له : (... أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) [الأعراف 129/7] .

قال موسى في جوابه الممزوج بالألم والأسى :

(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) [الأعراف 129/7] .

حقيقة المشكلة

إن المشكلة ليست أن نتبوأ مكان الخليفة أو فرعون ، ولكن المشكلة كيف سنعمل بعد ذلك ، وما المؤهلات التي عندنا لنساهم ببناء البيئة التي نتطلع إليها .

ولو توجهنا بوضوح وبلاغ مبين إلى أن نضع هذه المهمة المقدسة أمام ضمائر شبابنا المتطلع بشوق وحرقة إلى حياة شريفة وكريمة لوجدناهم يقومون بهذا العمل المقدس الذي يحتاج إلى قوة الشباب ، وحيوية الشباب ، وبراءة الشباب .

إنهم سيقومون بهذا الواجب أيضاً احسن منا .

وإني لأتوجه إلى الله تعالى بكلمات آدم حين هوى :

(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ) [الأعراف 23/7] .

لعله يتوب علينا ويهدي .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

جودت سعيد

خلاصة القول

1- هذا الكتاب يهدف إلى إيجاد أسلوب لحل مشكلات البناء في البلاد المتخلفة عن إدراك سنن الله .

وهو وإن كان يوجه الكلام بالأسلوب التقليدي إلى الإسلاميين ليدلهم على الطريق ، فهو لم يقصد الاقتصار على الإسلاميين ، بل يريد أن يضع أمام ضمير الآخرين هذا الأسلوب في العمل ليكون موضع تأملهم .

2- ثم يبرز الأسلوب الذي زكاه الله في موقف ابن آدم الأول من أول نزاع حدث في مطلع البشرية ، ليكون هذا الأسلوب المزَّكى من قِبل رب العالمين نبراساً للبشرية في خط سيرها الطويل .

3- وبهذا الموقف ينظر إلى أن يؤدي الإنسان الواجب الذي عليه بصرف النظر عن الحق الذي سيكون أجراً له .

مذهب ابن آدم الأول

يُبرز المؤلف في هذا البحث الأسلوب الذي زكاه الله في موقف ابن آدم الأول من أول نزاع حدث في مطلع البشرية .. ليكون هذا الأسلوب المزَكّى من قِبل رب العالمين نبراساً للبشرية في خط سيرها الطويل . ويهدف إلى إيجاد أسلوب آخر لحل مشكلات البناء .

يوجه هذا الكتاب وهو أن كان الكلام إلى الإسلاميين ليدلهم على الطريق ، إلا أنه لم يقصد الاقتصار عليهم ، بل يريد أن يضع أمام ضمير الآخرين هذا الأسلوب في العمل ليكون موضع تأملهم .

ويبين هذا الكتاب أن على المسلمين من أجل استئناف الحياة الإسلامية أن يقوموا بعملية البلاغ المبين ، وأن يؤدوا واجباتهم بصرف النظر عن الحق الذي لهم .

ما هو الفرق بين جهاد الخوارج والجهاد الذي جاء به الإسلام ؟ ما الفرق بين الجهاد والخروج ؟ وهل نحن أصبحنا خوارج .